الفصلُ الثّالث

جهودُ شيخ الإسلام في علم السنن الربّانية

(الجانبُ التّأصيلي)

المبحثُ الأوّل

روافدُ علمِ السنّة عند شيخ الإسلام- رحمه اللّه

لعلم السّنن مؤهّلات ومواهب يجب أن تتوفّر للأفراد الذين يستطيعون إيجادها واستنباطها مِن آيات الله الكونيّة المقروءة والمنظورة.

ولقد أعطى الله - عز وجل - البشرَ مؤهّلات فطرية لكي يكتشفوا بها قوانينه الربانيّة، ويفيدوا منها، ويسخّروها حتى يعمروا هذا الكون، ويكون الإنسان خليفتَه في أرضه، فسبحانه وتعالى أعطى الإنسان السمعَ والبصر والعقل والفؤاد، وجعل هذه الحواس مسئولةً مسئوليّة كبيرة عن اكتشاف هذه الآيات الكونية التي تحكم الكون، وكذلك السّنن الاجتماعية التي تحكم الأفرادَ والجماعات وأفعالهم وسلوكهم في الحياة، وما يكونون عليه مِن أحوال، وما يترتّب على ذلك من نتائج كـ: الرّفاهية، أو الضيق في العيش، والسّعادة والشقاء، والعزّ والذل، والرقي والتخلف، والقوة والضعف، ونحْو ذلك من الأمور الاجتماعية.

وما يصيبهم في الآخرة مِن عذاب ونعيم لها- أيضًا- مؤهّلات تساعد الإنسان على إيجادها وفهمها فهمًا عميقًا، ومنها أنّه لا بدّ للإنسان أن يكون دارسًا للتاريخ ولأحوال الأممِ السّابقة، وملمًّا بالقصص القرآنية، ودارسًا للشريعة الإسلامية، وملمًّا بالسنة النبوية الشريفة.

والواعي المتأمّل لسيرة النبي ﷺ يلمح معرفتَه الجيدة للسنن الإلهية وتطبيقه لها في كلّ مكالات الحياة، فقد كان ﷺ حريصًا على الأخذِ بالأسباب في كلّ شأنٍ سواء أكان خاصًّا أو عامًّا، وأكثر ما يدلّ على ذلك تخطيطه الجيّد لأمْر الهجرة، وتنظيمه لأمْر الحرب وأخذه بأسباب النصر، ولقد كان ﷺ يختار الرجالَ في الشئون المختلفة طبقًا لمؤهّلاتهم التي تساعدهم على اجتياز الأعمال، ثمّ يتابعهم ويساندهم ويحاسبهم ويكافؤهم؛ فكان كلّ أمرِه تخطيطًا وتنظيمًا، وله المعرفة البالغة بما يصلحُ المجتمعات وينظمها ويوحّدها وكان خبرُه في تنظيم المجتمع المدني خيرَ دليلٍ على ذلك، ونجده ﷺ في مجال التربية يربّي أصحابه على تحمّل المسئولية والإيجابية

تجاه المجتمع ويمثّل لهم ذلك بمجتمع السفينة في قوله: «**مثلُ القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها وأصاب بعضُهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إنْ أرادوا الماء مرّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذِ مَن فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوا جميعً**»[1]. تصويرٌ دقيق لسنن الله تعالى في الأجسام والمجتمعات، فإذا كانت السفينة يحكمها قانونُ الطفو فإنّ المجتمع يحكمه قانونُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكقوله: «**مثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالحمّى والسهر**»[2].

وكقوله: «**المؤمنُ للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضُه بعضًا**» [3].

ومِن أروع ما يدلّ على حرص الرسول على تعلّم أصحابه وأمّته إدراك السنن الإلهية قولُه لزياد بن لبيد: بعد أنْ ذكر شيئًا وقال: وذلك عند ذهاب العلم، قلنا: يا رسولَ الله، وكيف يذهب العلمُ ونحن نقرأ القرآن ونقرؤه أبناءنا، وأبناؤنا يقرءونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: «**ثكلتك أمّك يا ابن لبيد، إنْ كنت لأراك مِن أفْقه رجلٍ بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون ممّا فيهما بشيء**» [4].

وهذا الحديثُ الشريف يوضّح إرشاد الرسول لأصحابه إلى أمرِ السّنن التي تعمّ الجميع وتمضي بلا استثناء، وفي هذا إجابةٌ عن السؤال الحائر على شفاه المسلمين: كيف يكونون مسلمين وتظلّ أحوالهم بهذا التخلّف والتأخّر والجمود؟ وقد صاغ شوقي ذلك في قوله:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب (هل يقرع في القسمة والاستهام فيه). والترمذي، كتاب الفتن. وأحمد (أول مسند الكوفيّين).

(٢) مسلم ٤/ ١٩٩٩.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب (تشبيك الأصابع في المسجد وغيره). ومسلم، كتاب البر والصلاة والآداب.

(٤) ذكره ابن كثير، جـ٢ ص ٧٦.

وقل يا رسولَ الله يا خيرَ مُرسل ... أبثّك ما تدري مِن الحسرات
شعوبُك في شرق البلاد وغربها ... كأصحاب كهفٍ في عميق سُبات
بأيْمانهم نـــوران ذكــرٌ وسنّة ... فما بالُهم في حالك الظلمات؟!!

فليس المراد من قولهﷺ: «**وذلك عند ذهاب العلم**» ارتفاعَ المعارف والثقافة من الكتب والرؤوس؛ بل ارتفاع الارتباط بينها وبين السّنن الكونية وإحسان التعامل بهذا العلم مع تلك السّنن.

والصحابةُ الكرام بدوْرهم كانوا على علمٍ ووعي بهذه السّنن، ومِن أبرز الذين ظهرت في حياتهم وأقوالهم هذه السّنن عمرُ بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي قال عنه ابنُ مسعود عندما مات: «**مات تسعةُ أعشار العلم، فقيل له: أتقولُ ذلك وفينا جلّة الصحابة؟! فقال: لم أردْ علم الفتيا والأحكام، إنّما أريد العلم بالله تعالى**»[1] [2].

لذلك نجد أنّ شيخَ الإسلام ابن تيمية كان يتمتّع بكثيرٍ من هذه المؤهّلات التي جعلتْه عميقًا في معرفة السّنن الإلهية، ومحاولته توظيفها، ودعوة الناس للعمل بها، ومنها:

أولًا: مكوّنات شخصية ابن تيمية- رحمه الله:

وهب الله - عز وجل - لكلّ إنسان شخصيته التي شاركت في إعدادها العديدُ من العوامل، ومِن هذه العوامل: الوالدين والبيئة، وقد تكونُ هذه العوامل معلمًا واعيًا، أو كتابًا هادفًا يكون عاملًا رئيسًا في تكوين شخصية الإنسان، وقد امتلك شيخُ الإسلام ابن تيمية شخصية قويّة مميّزة جعلته عالمًا مميزًا في مجاله العلمي والدعوي، ولقد كان لهذه الشخصيّة مكوناتٌ، منها: مواهبه الفطرية التي وهبها الله له، ومنها: ما تلقّاه عن معلّميه، أو كتبٍ قرأها، أو حياته وما انصرف إليه، وعصره الذي عاش فيه سواء كان ما أفاده فيه بطريق الإيمان بأن تغذّى من عناصره

(١) تفسير المنار، جـ ٤/ ١١٥، وانظر الإحياء ١/ ٢٣.
(٢) راجع: مفهوم السنن الربانية، د/ رمضان خميس الغريب، ط: مكتبة الشروق، ط: ثانية، ص(٣١).

ووجهته ودفعته، أو كانت استفادتُه مِن مقاومة ما فيه، فأرهقت قواه وشدّت عوده، فضرب على أوتاره ضربًا عنيفًا، فإنّ العالم ذا الشخصيّة القوية يستفيد مِن عصره سلبًا أو إيجابًا[1].

ويمكن تلخيص أهمّ هذه الصفات التي أهّلته لمعرفة علم السنة فيما يأتي:

١- التأمّل والعمق:

اتصف ابنُ تيمية- رحمه الله- بأنه كان متأمّلًا ومفكّرًا ومدقّقًا في الأمور، «لقد كان - رحمه الله - يدرس المسائل متعمّقًا فيها، بل ربّما قضى الليالي متفكّرًا في مسألةٍ واحدة حتى يحلّ مغلقها، وينتهي إلى الأمر الجازم فيها، وكان يتأمّل الآيات والأحاديث وقضايا العقل، ويوازن، ويعايش بفكرٍ مستقيم حتى ينبلج له الحقّ واضحًا، لذلك كان من أدقّ العلماء وأقدرهم على استنباط المعاني من الأحاديث وآيات القرآن الكريم»[2].

ولقد جاء في الكواكب الدرية أيضًا: «وأمّا ما وهبه الله- تعالى- ومنحَه من استنباط المعاني مِن الألفاظ النبويّة والأخبار المرويّة، وإبراز الدّلائل منها على المسائل، وتبْيين مفهوم اللّفظ ومنطوقه، وإيضاح المخصّص للعام، والمقيّد للمطلق، والنّاسخ للمنسوخ، وتبيين ضوابطها ولوازمها وملزوماتها، وما يترتّب عليها، وما يحتاج فيها إليها ممّا لا يوصف، حتى كان إذا ذكرَ آية أو حديثًا وتبيّن معانيه وما أريد به؛ يعجب العالم الفطنُ من حُسن استنباطه، ويدهشه ما سمعه، أو وقفَ عليه منه، فلم يكن ابنُ تيمية حافظًا وداعيًا فقط، بل كان متعمّقًا لا يكتفي فيما يدرس بالنظرة الأولى، بل يردّد البصر ويسبر غوْرَ المسائل حتى يصل فيها إلى نتائج محقّقة، وما يصل إليه يُدهش العقول ويحيّر الخصوم».

٢- حضور البديهة:

وصف الكثيرُ مِن العلماء المعاصرين شيخَهم ابن تيمية بهذه الصفة، وأكّدوا ذلك، فهو دائمًا يجيب على الأسئلة والمسائل بصورةٍ سريعة، ويسترسل في استحضار المعاني بطريقةٍ يعجبُ منها

(١) ابن تيمية حياته وعصره، لمحمد أبي زهرة، ص(٨٢) بتصرف.
(٢) ابن تيمية حياته وعصره ، لمحمد أبي زهرة، ص(٨٤).

السّامع، يقول أحدُ تلامذته أبو حفص البزّار: «كان ابن تيمية إذا شرعَ في الدّرس يفتح الله عليه أسرار العلوم وغوامض ولطائف ودقائق، وفنونًا، ونُقولَ العلماء، واستشهادًا بأشعار العرب، وهو مَع ذلك يجري كما يجري التيار، ويفيض كما يفيض البحر»[1].

٣- الاستقلال الفكري:

ظهر الاستقلالُ الفكري لابن تيمية واضحًا من خلال منهجِه في التفسير؛ فهو لا يتبع مَن سبقَه في الآراء، ولكنّه يتتبّع الدّلائل حيث كانت في القرآن ثمّ السنة النبوية ثمّ أقوال الصحابة، ويأخذ أقوالَ المفسّرين فيتفحّصها، ويرجّح أحد الأقوال عن الأخرى بمهارةٍ عجيبة، فهو مستقلّ الفكر لا يحكمه سوى القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة.

يقول أبو حفص البزار في ذلك: «كان إذا وضح له الحقّ يعضّ عليه بالنواجذ، والله ما رأيت أحدًا أشدّ تعظيمًا للرسول- عليه الصلاة والسلام- ولا أحرص على اتّباعه ونصْرِ ما جاء به منْه، حتى كان إذا أوردَ شيئًا من حديثه في مسألة، ويرى أنه لم ينسخه شيء غيره من حديثٍ يعمل به ويقضي ويفتي بمقتضاه، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائنًا مَن كان، وإذا نظر المصنّف إليه بعيْن العدل يراه واقفًا مع الكتاب والسنة لا يميله عنهما قول أحدٍ كائنًا مَن كان، ولا يرقب في الأخذ بمعلومها أحدًا، ولا يخاف في ذلك أميرًا ولا سلطانًا ولا سيفًا، ولا يرجع عنهما لقوْل أحد، وهو متمسّك بالعروة الوثقى»[2].

وهذه الصّفة لا بدّ منها لدارس السّنن الإلهية؛ لأنها تجعله قادرًا على فهْمها وتطبيقها، فهي حاكمةٌ عليه حيث هو لا يحيد عنها لأمرٍ آخر، فهو شديد الالتزام لما يفهمه ويقتنع به.

٤- الإخلاصُ في طلب الحقّ، والطهارةُ من أدران الهوى:

العلمُ بالسّنن الإلهية نورٌ يقذفه الله في قلوب أحبّائه ومخلصيه، فيجعلهم أكثرَ فهمًا وإدراكًا للحياة والأحياء، ويهبُهم حسًّا خاصًّا فيجعلهم يدركون به ما يخفى على الكثيرين، فيعتبرون

(١) الأعلام العلية، أبو حفص البزار، ص(٢٨).
(٢) الأعلام العلية، أبو حفص البزار، ص(٧٨).

ويقيسون الأحداث بعضها على بعض في وقتٍ يذهل فيه عقول الآخرين، خاصّة في أوقات المِحن والصعائب، فسبحانه يثّبت مَن يشاء فيهبه الفهمَ والمعرفة والفرقان الذي يستطيع أن يفرّق به بين الحقّ والباطل والخير والشر، فيرى الحقائق ماثلةً أمامه غيرَ خافية عليه، بينما تغيب عنْ غيره؛ ذلك لأنه ارتبط في كلّ حياته بالله هدفًا وعملًا وعبادة.

ومظاهرُ الإخلاص عند هذا الشيخ- رحمه الله- تجلّت في حياته كلها؛ لقد عاش مجاهدًا بكلّ أنواع الجهاد: بالقلم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبدروسه العلمية، ثمّ جهاده بالسيف، وتحمّله لبلاء السجن والظلم، وعدم مبالاته بما يجري له ما دام على طريق الحقّ؛ حيث يقول: «إنْ سجنوني فسجني خلوة، وإنْ نفوني فنفيي سياحة، وإنْ قتلوني فقتلي شهادة».

ولقد أفاضَ العلماء في ذكر هذه الصّفة كما بيّنا ذلك من قبل.

٥- قوّة الفراسة:

تحدّث الكثيرون عن فراسة شيخ الإسلام، منهم: أبو حفص البزار وغيرُه من العلماء، ووضّحوا كيف أنّ الله - عز وجل - وهبَه هذه الصفة، والتي- أيضًا- نراها مِن خلال مؤلفاته وفتاواه المتنوّعة، فهو سريعُ البديهة، ثاقبُ الفهْم، تلوح له الأمور مِن بعيد، يرى الشّخص فيفهم ما يدور في وجْهه حتى لو بدا له لأوّل وهلة، يصف ذلك الشيخ محمد أبو زهرة بتعبيراتٍ رصينة فيقول: «امتاز- رحمة الله عليه- بقوّة عقله، ونفاذ بصيرته، وحدّة مداركه، مع قوّة الإحساس؛ فقد كان ينفذ نظره إلى قرارات النفوس فيدركها، وإلى بواطن الأمور فيكشفها، فكان الألمعي يظنّ الظنّ كأنه رأى وسمع، وبدتْ فرائسه واضحةً في كلّ أمرٍ تولّاه، رأى التتار وحالهم ففَهِم بذكاءِ نفسه أنهم تضعْضَعوا، ولم يكونوا عند غزوهم الشام كما بدءوا، بل أترفت نفوسُهم فذهب بأسُهم، ولكن ماضيهم يرعبُ مَن يغزونهم فيهزمون بالرّعب لا بفرط القوّة.

رأى العبقري ذلك فكان يحلف أغلظَ الأيمان بأنّ جند مصر والشام لا محالة مُنتصرون، فإذا قال له الأمير: قل: إنْ شاء الله! قال: أقولها تحقّقًا لا معلّقًا، وهذا يدلّ على قوّة فراسته ونفاذ بصيرته.

ورأى رجلًا في زيّ طالب العلم يسير في طرق دمشق محتارًا؛ لأنه لم يكن معه ما ينفعه، فناداه ابن تيمية ووضع في يدِه دراهم، وقال: (أنفقْ منها، وأخلِ خاطرك)، وما تحدّث الشابّ بحاجته، ولكنها فراسة المؤمن وكرمُه»[1].

وفي هذا مِن الوعي بالسّنن وتوظيفها ما فيه؛ فهو يعرف بقوّة فراسته مدى تساقط التّتار وضعفهم، وأنّ لكل شيء إذا ما تمّ نقصانًا، وهذا مِن مكوّنات العلم بالسنن لديه.

٦ــ قدرته على التقعيد:

ويظهر ذلك جليًّا في ما كتبه من القواعد الفقهية، وقد سبق الحديثُ عن ذلك في الباب السابق.

ثانيًا: تكاملُ العلوم الدينيّة والعقلية لديه:

جمع شيخُ الإسلام- رحمه الله- بين المعرفة العميقة بالعلوم الدينية والعقلية بأنواعها مِن علومٍ كونيّة وفلسفية ومنطق وجغرافيا وتاريخ وفيزياء ورياضة وعلوم الأحياء وغيرها.

وهو يرى أنّ هذه «العلوم جميعها هي مظهرُ الكلمات الإلهية التي أشار إليها القرآن الكريم في مواضع متعدّدة، وهذه الكلمات تنقسمُ إلى كلمات دينية مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وكلمات كونيّة مثل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وهي المقصود بدعائه ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر**»، ولا يملك مخلوقٌ أنْ يخالف الكلمات الكونيّة التي تعني قوانين الكون والحياة والموت والخلق ومجريات الأحداث، وإنما تقع المخالفة في الكلمات الدينية؛ لأن الله امْتحن إرادةَ الإنسان بها، فالترابطُ هنا وثيقٌ بين الكلمات الدينية وبين العبادة الدينية من ناحية، ثمّ بين الكلمات الكونية والعبادة الكونية من ناحية أخرى»[2].

---

(١) ابن تيمية حياته وعصره، محمد أبو زهرة، ص(٩١) بتصرف يسير.
(٢) الفكر التربوي، ماجد عرسان، ص(١١٨).

وهكذا نجد أنّ العلم الديني يتكامل مع العلم الدنيوي؛ لأنهما يحقّقان معًا شرع الله «وقد ظهر هذا التكامل واضحًا جليًّا من خلال كتابات ابن تيمية؛ حيث وضح- أيضًا- ذلك مِن خلال حديثه عن العلوم، فيذكر أنّ العلوم نوعان: نوعٌ يتعلّق بتربية الإنسان وتعليمه وتهذيبه عقائديًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا، وهذه يسمّيها ابن تيمية: «علومًا سمعية»؛ لأنها جاءت بالسّماع عن طريق الوحي والرسل، وهي تستلزم الصدقَ لعدالة الأنبياء والرسل وصدقهم ومعجزات ما جاءوا به.

ونوعٌ يتعلّق بجسده وعقله كـ: الطبّ والهندسة والرياضيات والفلك، وهذه يسمّيها عقلية؛ لأنّ الشرع التقى بالدّلالة عليها والإشارة إليها، ثمّ ترك للعقل أن يخوض بها ويبحث ويفصّل.

وكلا النوعين علوم شرعية؛ لأنّ ثمراتها واحدة، وهي الكشف عن آيات الله في الوحي والخلق»[1].

ثالثًا: ثقافتُه الواسعة في جميع المجالات:

كان شيخُ الإسلام ابن تيمية يمتلك العقلَ الموْسوعي، فلم يكن متخصّصًا في علم من العلوم- كما سبق-، ولكنّه حوى وجمع بين كلّ العلوم كما لو كان متخصّصًا في ذلك، وهذه المعرفة أهّلته لمعرفة السّنن واستنباطها؛ فهي القوانين التي تحكم الأمم والجماعات، ولا بدّ للإنسان كي يعرف قوانين أي أمّة أن يفهم منهجها وفكرها ولغتها وتاريخها الذي عاشته، ومدى فهمها للحياة ومعرفتها بالكون الذي تعيش فيه، ولذا كان شيخ الإسلام أهلًا لمعرفة السنن الإلهية.

وقد سبق الكلام عند منزلته العلميّة، ولكن نشير فقط في هذا المبحث إلى هذه الثقافة عن طريق بعض ما كتبه في ذلك، ومِن هذه العلوم ما يأتي:

- معرفته بقواعد اللغة العربية وإيحاءاتها.

- معرفته بالفقه.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، (١٩)، ص(٣٢، ٣٣).

- معرفته بعلم البلاغة.

- معرفته بالفلسفة وعلم الكلام.

- معرفته بالأنساب.

- معرفته بالديانات الأخرى.

وسنقدّم بعض الأمثلة الشاهدة على معرفته بهذه العلوم من خلال ما كتبه في كتاب الفتاوى:

١- معرفتُه باللغة العربية:

أتقن الشيخُ- رحمه الله- قواعد اللغة العربية، ومِن ذلك يقول في أثناء شرحه لدرجات الإيمان: «فإنّ الدرجات الثلاث التي هي: الإسلام والإيمان والإحسان داخلة في الدين كما قال في الحديث الصحيح: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم»[١] بعد أن أجابه عن هذه الثلاث، فبيّن أنّها كانت كلها من ديننا، والدين مصدر، والمصدر يُضاف إلى الفاعل والمفعول، يقال: دان فلان فلانًا: إذا عبده وأطاعه كما يقال: دانه إذا أذلّه؛ فالعبد يدين الله، أي: يعبده ويطيعه، فإذا أضيف الدين إلى العبد فلأنه العابد المطيع، وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]»[٢].

وأيضًا نجد معرفته باللغة العربية واضحة في أثناء شرحه لسورة الغاشية، حيث يقول في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥﴾ [الغاشية: ١-٥]، فذكر أنّ فيها قولين:

أحدهما: أنّ المعنى: وجوه في الدنيا خاشعة عاملة ناصبة تصلى يوم القيامة نارًا حامية، يعني بها عباد الكفار كـ: الرهبان وعباد البدور، وربما تؤولت في أهل البدع كالخوارج.

والقول الثاني: أنّ المعنى: أنها يوم القيامة تخشع، أي: تذل وتعمل وتنصب.

---

(١) السنن الكبرى للنسائي، (٢/ ١٩٣).
(٢) الفتاوى، (١٠/ ١٥٨).

قلت: هـذا الحقّ لوجوه، أحـدهما: أنه على التقديـر يتعلّق الظرف بما يليه، أي: وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة، وعلى الأوّل لا يتعلق إلّا بقوله: ﴿تَصْلَىٰ﴾، ويكون قوله: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ صفة للـ﴿وُجُوهٌ﴾ قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلّق بصفة أخرى متأخّرة، والتقدير: وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى نارًا حامية، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل، فالأصل إقرارُ الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه، وإنّما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة، أمّا مع اللّبس فلا يجوز؛ لأنه يلتبس على المخاطب، ومعلومٌ أنه ليس هنا قرينة تدلّ على التقديم والتأخير، بل القرينة تدلّ على خلاف ذلك، فإرادة التقديم والتأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان، وأمر المخاطب بفهمه تكليف لا يطاق»[1].

والأمثلةُ على معرفة شيخ الإسلام للغة العربية وإيحاءاتها وقواعدها كثيرة، سنجد الأمثلة مُتناثرة في ثنايا كلامه لكلّ مَن يتناول تراث هذا الرجل، ولقد تحدّث العلماء عن مكانته العلمية ذاكرين مكانتَه في اللّغة العربية، وكيف أنه كان بينه وبين سيبويه مناقشاتٌ كثيرة في علم النحو.

٢- معرفتُه بالفقه وتميّزه فيه:

لعلّ من أهمّ المعينات على فهْم السنن وتطبيقها معرفةَ الفقه معرفة جيدة، خاصّةً ما يعرف بفقه المآلات وفقه الموازنات وفقه المقاصد وفقه الأولويات وفقه الواقع، والدارسُ لسيرة شيخ الإسلام وتراثه دراسةً متأنّية جيدة يجد كثيرًا من الإلماحات إلى هذه العلوم، وسنذكرُ هنا إطلالة بسيطة على هذه العلوم عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

فقهُ المآلات:

١- المعنى اللغوي: (ومعنى المآل عند أهل اللغة هو المرجعُ والمصير والعاقبة والمنتهى، ونحوه من المرادفات، وفي مصطلح «مآلات الأفعال» يستعمل لفظ المآل بمعنى نتائج الأعمال وآثارها وما تنتهي إليه من عواقب في الواقع)[2].

(١) الفتاوى، (١٦/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) نظر فقه المآل مفهومه وقواعده، الدكتور سيد الدين العثماني- دار الكتاب المغربي، دار الكلمة جـ١- ص ١١ ط٢٠١٥-١٤٣٦ .

٢- المعنى الاصطلاحي: (هو الفقه الذي ينظر إلى مآل الحكم الشرعي عند تنزيله في الواقع ويأخذه بعين الاعتبار، فإن كان الحكم سيؤدي إلى مقصده أمضاه، وإن كان لا يؤدي إلى مقصده عدّله أو غيّره بحسب طبيعة المآل، وذلك يستلزم أيضًا معرفةَ فقه التوقّع والاسشراف للمستقبل)[١].

ويتضّح مضمون فقه المآل من خلال ما وردَ عن شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في تعامله مع التّتار ووحشيتهم؛ حيث يقول: (مررتُ أنا وبعض أصحابي في زمن التّتار بقوم منهم يشربون الخمر فأنكَرَ عليهم مَن كان معي، فأنكرت عليه وقلتُ له: إنّما حرم الله الخمرً لأنها تصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدّهم الخمر عنْ قتل النفوس وسبْي الذرية وأخذ الأموال فدعْهم)[٢].

فالغاية مِن إنكار المنكر هو إزالته أو تحصيل المعروف، أمّا إذا كان مآل إنكار المنكر هو أن ينتج عنه ما هو أنكرُ منه؛ فإنّ إنكاره لا يسير على سنن الشريعة[٣].

وفي موضعٍ آخر يتحدّث شيخ الإسلام فيه عنْ واقعية فقه المآلات، وأنه فقهٌ تزداد الحاجةُ إليه على قدْر ازدياد الفتنة (وقد نصّ تقي الدين ابن تيمية بأنّ باب التعارض بين المصالح والمفاسد «بابٌ واسع جدًّا» لاسيّما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثارُ النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلّما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك مِن أسباب الفتنة بين الأمّة، فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقعَ الاشتباه والتلازم؛ فأقوامٌ قد ينظرون إلى الحسنات فيرجّحون هذا الجانب وإن تضمّن سيئات عظيمة، وأقوامٌ قد ينظرون إلى السيئات فيرجّحون الجانب الآخر وإنْ ترك حسنات عظيمة، والمتوسّطون الذين ينظرون الأمرين قدْ لا يتبيّن لهم أو لأكثرهم مقدارُ المنفعة والمضرّة أو يتبيّن لهم فلا يجدون مَن يعينهم العمل بالحسنات وترك السيئات؛ لكوْن الأهواء قارنت الآراء)[٤].

---

(١) السابق صـ١٥ بتصرف
(٢) انظر إعلام الموقعين، جـ٣ صـ٥.
(٣) فقه المآلات، صـ٤٨
(٤) الفتاوى، جـ٢٠ صـ٥٧-٥٨. وفقه المآل، ص ٧١.

وفي موضعٍ آخر يبين شيخ الإسلام- رحمه الله- أهمية الوعي بفقه المآلات فيقول: (الواجبات والمستحبّات لا بدّ أن تكون المصلحة فيها راجحةً على المفسدة؛ إذْ بهذا بعثت الرّسل ونزلت الكتب، واللهُ لا يحب الفساد ؛ بل كلّ ما أمر الله به فهو صلاح.

وقد أثنى اللهُ على الصلاح والمصْلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذمّ المفسدين في غير موضعٍ، فحيث كانت مَفسدة الأمر والنهي أعظمَ من مصلحته لم تكنْ ممّا أمر الله به، وإن كان قد ترك واجبًا وفعل محرّمًا؛ إذ المؤمنُ عليه أن يتّقي الله في عباده، وليس عليه هداهم)[1].

فقه الموازنات:

لعلّ خيرَ دليل على معرفته بهذا العلم ما كتب عنه (رحمه الله) مِن دراسات في بيان معرفته بعلم الترجيح، وقد أشرنا إلى ذلك سابقًا عند الحديث عن الدراسات السابقة.

ومِن هذه الإلماحات التي كتبها ابنُ تيمية فتحدّث فيها عن فقه الموازنات؛ قوله: (ليس العاقل مَن يعلم الخير والشرّ فقط، بل يجب أن يعلم خيرَ الخيرين وشرَّ الشرّين، ويعلم أنّ الشريعة مَبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلّا فمَن لم يوازن ما في الفعل والتّرك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية؛ فقد يدعُ واجباتٍ ويفعلُ محرمات)[2].

وأيضًا مِن هذه الإلماحات الجميلة ما ذكَره في أثناء حديثٍ عن الاحتفال بالمولد النبوي مع تبديعه إيّاه- على صاحبه الصلاة والسلام- حيث يقول رحِمَهُ الله: (تعظيمُ المولد واتخاذه موسمًا قد يفعله بعضُ الناس، ويكون له فيه أجرٌ عظيم لحُسن قصده وتعظيمِه لرسول الله ﷺ كما قدّمته لك أنه يَحسن مِن بعض الناس ما يُستقبح من المؤمن المسدّد، ولهذا قيل للامام أحمد عن بعض الأمراء إنّه أنفق على مصحفٍ ألفَ دينار ونحو ذلك، فقال دعْه؛ فهذا أفضل ما أنفق فيه الذهب، أو كما قال، مع أنّ مذهبه أنّ زخرفة المصاحف مكروهة، وقد تأوّل بعض الأصحاب أنه أنفقها في تجديد الورق والخطّ.

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ٢٨ صـ١٢٦

(٢) اقتضاء الطريق المستقيم، جـ١ صـ٢٩٨

وليس مقصودُ أحمد هذا، وإنّما قصده أنّ هذا العمل فيه مصلحة، وفيه أيضًا مفسدة كره لأجلها، فهؤلاء إنْ لم يفعلوا هذا؛ اعتاضوا الفسادَ الذي لا صلاح فيه مثل أن ينفقها في كتابٍ من كتب الفجور ككتب الأسماء أو الأشعار أو حكمة فارس والروم، فتفطّن لحقيقة الدين، وانظرْ ما اشتملت عليه)[1].

أمّا معرفته بعلم الواقع، فلا يخفى على أحدٍ جهادُ ابن تيمية في مواجهة المُبطلين من الخوارج والباطنة وأهل البدع من الفلاسفة والمتصوفة، ومعاركُه التي خاضها مع التّتار والصليبين، وكلّ الفتن التي تعرض إليها وتناولها العلماء في سيرته العطرة، وكيف أنّه واجهها بصبر وإيمان، وتحمّل فكان لهم القائدَ والمربي والداعية الأمين الناصح للأمّة في كلّ مصائبها وفي كلّ أفراحها، ورسائله التي كتبها ابن تيمية للأمراء ينصحهم فيها أو يهنّئهم على انتصارهم على الصليبيين والتتار لخيرُ دليل على فهْمه الرائع لواقع المسلمين، وكيف أنه أفاد مِن ذلك في دعوته الناس إلى الخير، وما كتبه في الفتاوى غالبًا ليس إلّا شرحًا لواقع الناس من عللٍ وأدوية.

فقهُ الأولويات:

يظهر جيدًا- مِن خلال دراستنا لابن تيمية- أنّه كان يوظّف هذا العلم توظيفًا جيدًا فإنه عرف جيدًا كيف يوظّف أدواته المختلفة في الدعوة إلى الله- عزّ وجلّ- طبقًا لحاجة المجتمع واحتياجاته، فكان وقتًا معلّمًا، ووقتًا قاضيًا، ووقتًا واعظًا، ووقتًا مجاهدًا بالسيف ومجاهدًا بالقلم، أو مجاهدًا بالمناظرات واللقاءات. كلّ شيء كما تُمليه الضرورة ويحتاجُه الناس، وخيرُ دليل على ذلك مصنفاتُه التي كتبها في داخل السجن؛ حيث ليس له مِن وسيلة ليستخدمها في نفع الناس في تلك الظروف العصيبة إلّا عن طريق صرير الأقلام يسجّل بها خلجاتِ نفسه وما يجول بخاطره وعقله من علم وفهْم حول كتاب الله وفتاوى يحتاجها الناس في حياتهم ومعادهم، رحم الله شيخَ الإسلامِ.

فقهُ المقاصد:

ولعلّ مِن أفضل الأمثلة على معرفة شيخ الإسلام بعلم المقاصد ما تناوله- رحمه الله- في أثناء حديثه عن الشرّ الجزئي، والحكمة من خلق الله للشرّ، وأنّه يجب على الإنسان التفكّر فيما

(١) مجموع الفتاوى، جـ١٤ صـ٢٦٦.

خلقه الله والبحثُ عن الحكمة مِن وراء ذلك، فيقول رحمه الله: (وأمّا الشرّ الجزئي الإضافي: فهو خيرٌ باعتبار حكمته. ولهذا لا يضاف الشرّ إليه مفردًا قط، بل إمّا أن يدخل في عموم المخلوقات كقوله {وخلق كلّ شيء}، وإمّا أن يضاف إلى السبب كقوله {مِن شرّ ما خلق}، وإمّا أن يحذف فاعله كقول الجنّ {وأنّا لا ندري أشرّ أريد بمَن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا})[1].

ولقد فهم شيخُ الإسلام- رحمه الله- المقصدَ من وراء العبادات التي أمرنا الله بها، فليس الهدفُ من العبادات المختلفة التعبَ والمشقة، ولكنْ هناك معنًى واضحٌ وهدفٌ عظيمٌ مِن وراء كلّ عبادة من العبادات، وعلى سبيل المثال تكلّم الشيخ- رحمه الله- عن المقصود مِن الصّيام بأنه التقوى، وعن المقصود من الزكاة بأنه التّطهّر[2].

٣- معرفتُه بعلم البلاغة:

إنه لا بدّ لَمَن يعرف علمَ السنن الإلهية معرفةً جيدة أن يكون ملمًّا بعلم البلاغة؛ حتى يستطيع تأمّل الآيات القرآنية، وفهمَ معاني الآيات والإيحاءات البلاغية التي تشير إليها الآيات، ومثالٌ على معرفة الشيخ- رحمه الله- بعلم البلاغة ما وردَ في أثناء شرحه للآية الكريمة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] لمّا ذكر الله - عز وجل - في هذه الآية لفظ: (قِتَالٌ) لم يستبدلْه بضمير وقال: (هو كبير).

يقول: «في إعادته بلفظ الظّاهر بلاغةٌ بديعة، وهو تعليق الحكم الخبري باسْم القتال فيه عمومًا، ولو أتى بمُضْمر فقال: هو كبير لَتوهّم اختصاص الحكم بذلك القتال المسئول عنه، وليس الأمر كذلك، وإنّما هو عامّ في كلّ قتال وقعَ في شهرٍ حرام»[3].

وتظهر معرفةُ الشيخ بعلم البلاغة في كثيرٍ من تفسيره للقرآن الكريم؛ حيث يظهر خصوصيات الكلام وعمومُه واختيارات الألفاظ القرآنية في مواضع بعينها دونَ غيرها.

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ١٤ صـ٢٦٦.
(٢) الفتاوى، (١٦/ ٢٠٠).
(٣) الفتاوى، جـ(١٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾.

٤- علمُ الفلسفة، وعلمُ الكلام:

لقد تحدّثنا سابقًا عن ثقافة الشيخ، وكيف أنه اعتكفَ على آراء الفلاسفة كلّها يعرفها وينقدها ويمحّصها، ويظهر الغثّ فيها مِن السمين، ويدحض شبهاتهم التي تمسّ العقيدة وتضلّل فكرَ الآخرين من الناس، ويظهر لهم أنّ ما وصلوا إليه من الحقّ كانوا في غنى عنه لو اعتكفوا على كتابِ الله وسنة رسوله، وكتب في الردّ عليهم كتبًا ورسائل كثيرة، منها: درءُ تعارض العقل والنقل.

ولقد سجلت سيرتُه مناظراتٍ كثيرةً بينه وبينهم؛ ليوضّح لهم الحقّ، ويبعدهم عن الباطل.

ولعلّ بعضَ كلامه في كتب الفتاوى دليلٌ على معرفته الجيدة بهذا العلم، وفي ذلك يقول متحدّثًا عن الإدراك والعلم والذّكر: «ولمّا كان النظر مبدأ والذكر منتهًى؛ لأن النظر يتقدّم الإدراك، والعلم والذكر يتأخّران عن الإدراك والعلم؛ ولهذا كان المتكلّمة في النظر المقتضي للعلم، وكان المتصوّفة في الذكر المقرّر للعلم؛ قدّم آلةَ النظر على آلة الذكر، وختمَ بهداية الملك الجامع الذي هو الناظر الذاكر»[(١)].

ويقول في موضعٍ آخر متحدّثًا عن حقيقة الأشياء: «وكلّ شيء له حقيقةٌ في نفسه ثابتة في الخارج عنِ الذّهن، ثمّ يتصوّره الذّهن والقلب، ثمّ يعبر عنه اللّسان، ثمّ يخطّه القلم، فلَهُ وجود عيني، وذهني، ولفظي، ورسمي، وجود في الأعيان والأذهان واللّسان والبنان»[(٢)].

ثمّ يتحدّث عن الماهية والمقصود بها، ويبيّن أنّ الفلاسفة حاولوا إثبات وجود الله، وأنّ الإنسان مخلوق، وأنّ له خالقًا عن طريق التعريف بالماهية، وذكر أنّ هذه هي الطريقة المشهورة التي يسلكها الجهميّة والمعتزلة[(٣)].

وخيرُ دليل على معرفته بالفلسفة وعلم الكلام ما كتبه فيهما مثلَ مختصراته كشرح الأصبهانية، ومطولاته تخليص التلبيس من تأسيس التقديس، والموافقة بين العقل والنقل، ومنهاج الاستقامة والاعتدال[(٤)].

---

(١) الفتاوى، (١٦/ ٢٢٢).
(٢) الفتاوى، (١٦/ ٢١٩).
(٣) انظر: الفتاوى، ص(٢١٩) بتصرف.
(٤) الأعلام العلية: ٣٣.

٥- علمُه بالأنساب:

«لقد امتاز الصحابةُ - رضي الله عنهم - بمعرفتهم للأنساب، وكان مِن أشهر هؤلاء: سيدنا أبو بكر الصديق، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعُرف عنهما معرفتُهما العميقة لسنّة الله - عز وجل - ، وتوظيفهم إيّاها توظيفًا رائعًا»[١].

لذلك نجد أنّ من روافد السّنن عند شيخ الإسلام- رحمه الله- معرفته بأنساب العرب؛ حيث يقول في أثناء تفسيره للآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] يقول: «ولهذا كان الخلفاء أفضلَ من الطلقاء من قريش، وهُم ليسوا من ربيعة ولا مُضر، بل مِن قحطان، وأكثرُ الناس على أنّهم من ولد هود، ليسوا مِن ولد إبراهيم، وقيل: إنّهم مِن ولد إسماعيل؛ لحديث أسلم لّما قال: (ارموا فإنّ أباكم كان راميًا)، وأسلم مِن خزاعة، وخزاعة من ولد إبراهيم»[٢].

إنّ المعرفة بالأنساب تتيح الفرصةَ الجيّدة لمعرفة معادن الناس وخصائصهم، وهناك مِن الصفات المَوْروثة التي تناقلتها الأجيال مِن خلال الآباء لا تظهر ولا تعرف إلّا عن طريق هذه المعرفة الجيدة بالناس، فيتيح الفرصة الجيدة للتعامل الجيد مع الناس، وحسن توظيفهم على النّحو الأمثل، كما أنّ المعرفة بالإنسان تساعد على معرفة الأحداث.

٦- علمُه بالدّيانات الأخرى:

تظهر معرفةُ شيخ الإسلام جليّة واضحةً بالديانات الأخرى في أثناء حديثه عن اليهود والنّصارى، ودحضِه الشبهات التي ظهرت منهم، ومثالٌ على ذلك ما كتبه في ثنايا كتاب الفتاوى مِن آراء عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

يقول في أثناء حديثه عن اليهود: «وإذا قال اليهود: نحن نقصد عبادة الله، كانوا كاذبين، سواء عرفوا أنّهم كاذبون أو لم يعرفوا، كما يقول النّصارى: إنا نعبدُ الله وحده وما نحن بمشركين، وهُم كاذبون؛ لأنّهم لو أرادوا عبادته لعبدوه بما أمر، وهو الشرع، لا بالمنسوخ المبَدّل.

---

(١) مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير، د. رمضان خميس، ص(٣٢، ٣٣) بتصرف.
(٢) الفتاوى، (١٦/ ١٩١).

وأيضًا، فالربّ الذي يزعمون أنّهم يقصدون عبادته وهو عندهم ربّ لم ينزل الإنجيل ولا القرآن ولا أرسل المسيح ولا محمدًا، بل هو عند بعضهم فقير، وعند بعضهم بخيل، وعند بعضهم عاجز، وعند بعضهم لا يقدر أن يغيّر ما شرعه، وعند جميعهم أنه أيّد الكاذبين المفترين عليه، الذين يزعمون أنّهم رسله وليسوا رسله، بل هم كاذبون سحرة قد أيّدهم ونصرهم، ونصرَ أتباعهم على أوليائه المؤمنين؛ لأنّهم عند أنفسهم أولياؤه دون الناس، فالربّ الذي يعبدونه هو دائمًا ينصرُ أعداءه»[1].

ويتّضح من هذا الكلام أنّ شيخ الإسلام- رحمه الله- على معرفةٍ جيّدة بصفات اليهود والنصارى وديانتهم وشبهاتهم الخاطئة، لذلك كان لتلك المعرفة أثرٌ في تعامله معهم أثناءَ الحروب الصليبية، ولم ينخدعْ بهم عندما كرّروا الهجماتِ على الدول الإسلامية، فهو يعرف جيدًا «أنّ الأعراف والأخلاق عند الشعوب مِن الصعب تغييرها»[2].

ولم ينخدعْ بمظاهرهم المختلفة التي يُبدونها للتخفّي وراء أغراضهم الخبيثة؛ لأنه يعرفهم جيدًا، فهُم قساةٌ بخلاء لا ينخدعون لدين، ولا يحترمون الشعوب.

٧- معرفتُه بالعلوم الكونيّة:

تظهر معرفةُ شيخ الإسلام بالعلوم الكونيّة مِن خلال شرحِه لآي القرآن؛ حيث وضّح معنى الينابيع، وأنّها جمع ينبوع، وهو منبعُ الماء كالعين والبئر، فيقول: «فدلّ القرآن على أنّ ماء السماء تنبع منه الأرض، والاعتبار يدلّ على ذلك، فإذا كثر ماءُ السماء كثرتِ الينابيع، وإذا قلّ قلّت.

وماءُ السماء ينزل من السحاب، والله ينشئه مِن الهواء الذي في الجوّ وما يتصاعد من الأبخرة، وليس في القرآن أنّ جميع ما ينبع يكون مِن ماءِ السماء؛ فإنّ الماء قد ينبع مِن بطون الجبال، ويكون فيها أبخرةٌ ينبع منها الماء، والأبخرة وغيرها من الأهوية قد تستحيل كما إذا أخذنا إناءً فوضع

(١) الفتاوى، (١٦/ ٥٦٣).
(٢) السنن النفسية لتطور الأمم، غوستاف لوبون، ص(٢٤).

فيه ثلجٌ فإنه يبقى ما أحاط به ماء، وهو هواء استحال ماء، وليس ذلك مِن ماء السماء، فعلم أنه مُمكن أن يكون في الأرض ماء ليس من السماء، فلا يجزم بأنّ جميع المياه من ماء السماء، وإن كان غالبها من ماء السماء، والله أعلم»[1].

علم الشيخُ بطبيعة الأشياء يظهر- أيضًا- من خلال كلامه الذي تحدّث فيه عن الحركات صفتها وطبيعتها وأنواعها، وكيف أنّها قد تكون قسرية أو إرادية أو طبيعية، وصنف كلّ نوع، وعرّفه تعريفًا جيدًا، وبيّن كيف يكون منشؤه[2].

٨- معرفتُه بأحوال النفوس:

لقد كان لشيخ الإسلام- رحمه الله- معرفةٌ جيدة بأحوال النفوس وطبيعتها، وكيفية التعامل معها، وخصائصها الربّانية التي منحها الله إيّاها، وخصائصها المكتسبَة من البيئات المختلفة والعادات والتقاليد الموروثة، فنجده يوضّح سببَ امتناع الناس عن الاستماعِ إلى الحقّ في ضوء قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠]، فيقول: «وسببُ عدم النظر والاستماع: إمّا عدم المقتضى فيكون عدمًا محْضًا، وإمّا وجودُ مانع من الكِبر أو الحسد في النفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: ١٨]، وهو تصوّر باطل، وسببُه عدم غنى النفس بالحقّ؛ فتعتاض عنه بالخيال الباطل»[3].

وتظهر معرفتُه بأحوال النفوس من خلال رسمِه الطريقةَ المثلى لإصلاح النفوس حيث بيّن أنّ مِن الناس مَن إذا نصحته بأنْ يترك ما لديه من الفضل إلى ما هو أفضل منه فلا يستطيع أن يفعل الأفضل، ولا ما هو أفضل منه، فيجب علينا مراعاة النّاس في ذلك.

ويرى- أيضًا- أنّ مِن الناس ما يضرّه إذا سلك سبيلًا مِن سبل السلام الإسلامية أنْ يرى غيرَه أفضل منها؛ لأنّه يتشوّق إلى الأفضل فلا يقدر عليه، والمفضول يعرض عنه، لذلك فإنّه

(١) الفتاوى، (١٦/ ١٦) بتصرف يسير.
(٢) انظر: الفتاوى، (١٦/ ١٣١).
(٣) الفتاوى، (١٣/ ٢٣).

ليس من مصلحته أن يعرف أفضل مِن طريقته إذا كان يترك طريقته ولا يسلك تلك، فليس- أيضًا- مِن الحقّ أنْ يعتقد أنّ طريقته أفضل من غيرها، بل مصلحته أنْ يسلك تلك الطريقة المُفضية به إلى رحمة الله تعالى.

ويبيّن في ذلك أنّ النصيحة أو هذا العمل الدعوي مبنيّ على أربعة أصول في معالجة النفس:

أحدهما: معرفة مراتب الحقّ والباطل والحسنات والسيئات، والخير والشرّ، فيعرف خير الخيرين وشرّ الشرّين.

والثاني: معرفة ما يجب من ذلك وما لا يجب، وما يستحبّ من ذلك وما لا يستحب.

والثالث: معرفة شروط الوجوب والاستحباب مِن الإمكان والعجز، وأنّ الوجوب والاستحباب قد يكون مشروطًا بإمكان العلم والقدرة.

الرابع: معرفة أصناف المخاطبين وأعيانهم، ليأمرَ كلّ شخص بما يصلحه، أو بما هو الأصلح له مِن طاعة الله ورسوله، وينهى بما ينفع نهيُه عنه، ولا يأمر بخير يوقعه فيما هو شرّ مِن المنهي عنه مع الاستغناء عنه[1].

٩- علمُه بأهل البدع والمذاهب المنحرفة عن الشرع:

لا يخفى على أحدٍ عرفَ سيرةَ شيخ الإسلام- رحمه الله- مدى ما لاقاه في محاربة البدعة والمذاهب المُنحرفة عن الدين، ولم يكن ذلك إلّا عن معرفةٍ جيدة بما تحتويه هذه المذاهب المُنحرفة من فساد. ومِن أجل ذلك كتب الكتبَ التي توضّح هذه المفاسد، وردّ عليها، وبيّن خطرها على العقيدة الإسلامية والأمة الإسلامية.

ومِن كلامه الذي ذكره في كتاب الفتاوى ما يوضّح- أيضًا- تلك الخبرة؛ حيث يقول: «وكذلك أهلُ الفجور المُترفين قد يظنّ أحدهم أنّه لا يمكنه فعل الواجبات إلّا بما يفعله من

(١) الفتاوى، (١٤/ ٤٣٣).

الذنوب، ولا يمكنه ترك المحرمات إلّا بذلك، وهذا يقع لبشرٍ كثير من الناس، منهم مَن يقول: إنه لا يمكنه أداء الصلوات واجتناب الكلام المحرّم من الغيبة وغيرها إلّا بأكل الحشيشة.

ويقول الآخر: إنّ أكلها يُعين على استنباط العلوم وتصفية الذّهن، حتى يسمّيها بعضهم: معدن الفكر والذكر ومُحرّكة العزم الساكن، وكلّ هذا مِن خدع النفس ومكر الشيطان بهؤلاء وغيرهم، وإنّها لعمًى للذّهن، ويصير آكلها أبكمَ مجنونًا لا يعي ما يقول.

وكذلك مِن هؤلاء مَن يقول: إنّ محبته لله وحركته ورغبتَه في العبادة ووجْدَه وشوقَه وغير ذلك لا يتمّ إلّا بسماع القصائد، ومعاشرة الشاهد من الصبيان وغيرهم، وسماع الأصوات والنغمات، ويزعمون أنّ لسماع هذه الأصوات ورؤية الصور المحركات تتحرّك عندهم مِن دواعي الزهد والعبادة ما لا تتحرّك بدون ذلك، وأنهم بدون ذلك قد يتركون الصلوات ويفعلون له المحرمات الكبار، كـ: قطع الطريق وقتل النفوس، ويظنّون أنهم بهذا ترتاضُ نفوسهم وتلتذّ بذلك لذّة تصدّها عن ارتكاب المحارم والكبائر، وتحملها على الصلاة والصوم والحج»[1].

ومِن خلال كلامه السابق يتّضح لنا مدى معرفته بتلك المذاهب وطرقها، مثل: الصوفية الفلسفية، والمعتزلة، والجهمية، والخوارج، وما تنطوي عليه تلك الطرقُ من أفكار ومعتقدات فاسدة.

أمّا معرفته بالمواد الشرعيّة باعتبارها رافدًا من روافد السّنن من: الفقه والتفسير وعلوم القرآن؛ فلا يخفى على أحدٍ ما كتبه هذا الإمام خاصّة، وما أشاد به أصحابُه وأقرانه من تفوّقه في هذه العلوم، ولعلّ خيرَ شاهدٍ على ذلك كتب الفتاوى حيث نجدُها محتوية على: الفقه، والتفسير، والتصوف، والعقيدة، وأصول الفقه، وهذا واضح جدًّا في تراثه كلّه.

١٠- معرفتُه بالقصص القرآني:

ولا يخفى أنّ القصص القرآني من أهمّ مواطن ومَظانّ وجود السنن الربانيّة، حتى لا تكاد تجدُ قصةً من القصص القرآني إلّا وفيها سنة، أو عدد من سنن الله تعالى.

(١) الفتاوى، (١٤/ ٤٦٨، ٤٦٩).

رابعًا: التجاوبُ بين ابن تيمية وعصره:

ممّا لا شكّ فيه مدى تأثير البيئة على الإنسان في تشكيل مواهبه المختلفة، فإذا تهيّأت الظروف الصّالحة للإنسان استثمر تلك المواهب وظهرت نتائجها جليّة ظاهرة، وإن لم تجدِ الشخصية الراشدة الموهوبة هذا الاهتمامَ فقد تتأخّر في ظهور مواهبها، أو توجيه هذه المواهب إلى الشرّ، أو تتعثّر في إظهار ثمارها على النّحو الجيد المنتظر مِن هذه الموهبة، وخيرُ دليل على ذلك شخصية شيخ الإسلام- رحمه الله؛ فقد كان لعصره تأثيرٌ واضحٌ على اتجاهاته وأفكاره؛ حيث إنه- كما سبق- نشأ في ظلّ ظهور التتار وهجمتهم على الإسلام والمسلمين، وقد عاصر التهجيرَ لأهله حاملين كتبهم معهم، ومدى معاناتهم في ذلك، فنشأ على كراهية الحروب، وكراهية الأعداء، ومعرفة معادن الناس من خلال مواقفهم المختلفة في التعامل مع هذه المحنة.

ولا شكّ أنّ لهذا أهميةً كبيرة في فهْم الحياة، وكيفية التعامل مع هذه المِحْنة إذا ما تكرّرت مرّة أخرى، وفهم أسباب النصر وأسباب الهزيمة، وإحاطته بتلك السنن الإلهية.

فقد كان تأثيرُ البيئة (العلمية والسياسية) واضحًا في حياة ابن تيمية وما لها من تأثير على فكْره كلّه.

يقول في ذلك الشيخ محمد أبو زهرة واصفًا بيئةَ هذا الإمام الربّاني شيخ الإسلام- رحمه الله: «إنّ البذرة الصالحة لا تنمو إلّا بسقي ورعي وجوٍّ تتغذّى منه وتعيش فيه، فكلّ حي في الوجود يتأثر بالجوّ الذي يستنشق منه، والبيئة التي تظلّه، فإنّ البيئات تفعل في نفس الإنسان ما لا يفعله المربّون، ولذلك كان للعصر الذي يعيش فيه العالم الأثر الذي يوجّهه، وقد يكون الأثرُ من جنس حال العصر، فإن كان العصر فاسدًا فسدَ الرجل، وإن كان العصر صالحًا صَلح، وقد يكون التأثير عكسيًّا، فكثرة الفساد تحمل على التفكير الجدي في الإصلاح، وكثرة الشرّ تحمل على استحضار العزائم للخير، وقد تكون دافعةً للمُصلح لأن يفكّر في أسباب الشرّ فيقتلعها، وفي نواة الخير الكامنة فيغذّيها، وكذلك كانت المجاوبة بين ابن تيمية وعصره، تغذّت روحُه غذاءً صالحًا ممّا درس في صدر حياته، وما عكف عليه في كهولته وشيخوخته من رجوع إلى

ينابيع الشرع الأولى، والكنز المختفي من الهدي النبوي، وما كان عليه سلف المؤمنين، فكانت المعركة الشديدة تعتلج في نفس هذا الرجل العظيم، يرى فيما درس من الإسلام نورًا ساطعًا لامعًا، ويرى في عصره ظلمة شديدة وفسادًا في كلّ نواحيه، يرى في ماضي الإسلام عزًّا واتحادًا ووئامًا، ويرى في عصره ذلًّا وانقسامًا، يرى في ماضيه حكمًا صالحًا وأمرَ المسلمين شورى بينهم، ويرى في حاضره استبدادًا وطغيانًا، وقد أكل القوي الضعيف، واستمرأ الحاكم لحمَ المحكوم وماله، فتقدّم الرجل ليصلح وليداوي، وقد وجد الدواء بأيسر كُلفة، ومِن أسهل طريق، وجده في كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الصحابة وكبار التابعين، فتقدّم بالدواء ونادى به، وما كانت آراؤه العلمية كلها إلّا دواء عصره، ولو فتشت عن البواعث التي بعثته للمجاهرة بكلّ ما رأى لوجدت أنّ الذي بعث على المجاهرة عيبٌ في الزمان، وفساد عند أهل العصر في العمل، أو في الفكر، أو فيهما معًا»[1].

***

(١) ابن تيمية حياته وعصره، الشيخ محمد أبو زهرة، ص(١٠٥).

المبحثُ الثّاني

التدبّرُ السّنني لدى شيخ الإسلام ابن تيمية

تعدّدت مشاركات شيخ الإسلام- رحمه الله- في مجال التفسير الموضوعي، وتحدّثنا عن ذلك سابقًا في البابِ الثاني من جهوده في التفسير وعلوم القرآن، وأشرْنا إلى أنّ موضوع السّنن الإلهية كان مِن الموضوعات التي دخلت تحتَ نظام التفسير الموضوعي، وكان لشيخ الإسلام جهدٌ رائع في هذا المجال سيتّضح لنا في هذا الباب- إنْ شاء الله تعالى.

إنّ موضوع السنن الإلهية موضوعٌ ارتبط بكتاب الله - عز وجل -، فهو يدور مع الآيات القرآنية فهمًا واستنباطًا إذا تدبّرنا كتاب الله - عز وجل - كما يليق، وعلى الوجه الصائب، وحتمًا سيثمر ذلك في معرفة تلك السنن، خاصّة إذا توافرت لدى الباحث روافد السنن التي تتيح له استنباطها ومعرفتها وتطبيقها على الحياة والأحياء، حيث إنها تربط بين آيات الله- تعالى- التي نتلوها وآيات الله التي نشاهدها بعين أنفسنا في الكون والأنفس والأحياء والحياة، فهي تنظّم العلاقة القائمة بين الكون والإنسان، وكيف أنه لو استقام للإنسان ذلك لحقّق الرسالة التي خُلق مِن أجلها، وهي العبودية لله - عز وجل -، والقيام بحقّ الخلافة في هذا الكون وتعْميره، وكان خير شاهد على جميع الكائنات يوم القيامة، ولقد جاء الأنبياء جميعهم ليعلمونا هديه - سبحانه وتعالى -، ويربطوننا بهذه السنن الإلهية.

ولقد فهِمَ الصحابة - رضي الله عنهم - هذه السننَ وطبقوها في حياتهم ووظفوها، وكانوا من السابقين، وعلى قدر هذا الفهم للسنن وعلى قدر الاجتهاد في تطبيق ذلك تتحقّق السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذا- أيضًا- ما دعا إليه شيخ الإسلام- رحمه الله- وبيّنه في معظم كتاباته، ووضّح لنا أنّ السعادة والشقاء مرتبطان ارتباطًا كليًّا بمدى هذا الفهم لكتاب الله - عز وجل -، وتطبيق سننه- سبحانه- في هذا الكون.

معنى التدبّر السّنني في القرآن الكريم:

أقصدُ بتدبّر السنن الإلهية: الوقوف عند القرآن والتفكر فيه لاستنباط ما فيه مِن سنن الله- تعالى- المطّردة لتسخيرها والانتفاع بها، والسير على منهاجها، وعدم تنكّبها.

يقول الرسول ﷺ: «**يخرج في آخر الزمان قومٌ أحداث الأسنان سُفهاء الأحلام يقرءون القرآن لا يجاوزُ تراقيهم، يقولون مِن قول خير البرية، يمرقون مِن الدّين كما يمرق السّهم من الرميّة**»[1].

والاكتفاء بالتلاوة والحفظ دون التدبّر مخالفٌ لمنهاج السلف الصالح في التعامل مع القرآن الكريم، عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «كان الفاضلُ مِن أصحاب رسول الله ﷺ في صدْر هذه الأمّة لا يحفظ من القرآن إلّا السورة ونحْوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإنّ آخرَ هذه الأمّة يرزقون حفظ القرآن ولا يرزقون العمل به».

وفي هذا المعنى قال ابن مسعود: إنا صعُبَ علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهُلَ علينا العملُ به، وإنّ مَن بعدنا يسهُلُ عليهم حفظ القرآن، ويصعُبُ عليهم العمل به.

فتدبّر القرآن وقراءته قراءةً تدبّرية هي القراءة المُنتجة للفهم والاعتبار والعمل، وهي المِنهاج الذي سار عليه رسول الله ﷺ في تعليمه القرآن للصحابة - رضي الله عنهم -.

ذكر أبو عمرو الداني بإسناده عن عثمان بن مسعود وأبي y أنّ رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشرَ فلا يجاوزونها إلى عشرٍ أخرى حتى يتعلّموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعًا.

وقال محمد بن كعب القرظي: لأنْ أقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ ليلة أردّدهما وأتفكّر فيهما أحبّ إليّ مِن أن أبيت أهذّ[2] القرآن[3].

---

(١) صحيح البخاري، (٣/ ١٣٢١)، باب: «علامات النبوة في الإسلام»، ومسلم، باب: «ذكر الخوارج وصفاتهم»، (٣/ ١٠١)، وسنن الترمذي، كتاب الفتن، باب: «في صفة المارقة»، ح(٢١٨٨)، والنسائي، (٢/ ٤٦).

(٢) الهذّ: سرعة القطع والقراءة.

(٣) مصنّف ابن أبي شيبة، باب: قراءة القرآن، ح(٨٨٢٤).

ولهذا حضّ سلفنا الصالح على تدبّر القرآن الكريم، والوقوف عند آياته للانتفاع بها، والامتثال لها بما يعود على المرْء بالخير والصلاح في الدّنيا، والفوز والنجاة في الآخرة[1]، واقتداءً بما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه الكرام وسلف الأمّة الصالحين- رضوان الله عليهم.

جاء شيخُ الإسلام ابن تيمية سنة (٦٦١هـ - ٧٢٨هـ) ليحيي هذه السنة المباركة، ويؤكّد عليها وعلى التزامها، فيقول- رحمه الله: «فأمرنا أنْ نعتبر بأحوال المتقدّمين علينا مِن هذه الأمَّة، وممّن قبلها مِن الأمم، وذكر في غير موضع أنَّ سنَّته في ذلك مطَّردة وعادته مستمرّة، فينبغي للعقلاء أنْ يعتبروا بسنَّة الله وأيَّامه في عباده، ودأب الأمَم وعاداتهم».

ومَن يتصفّح كتب ابن تيمية يجد أثرَ التدبّر السنني في صفحاتها واضحة.

ويقول: «ذلك أنّ الله- تعالى- قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وتدبّر الكلام دونَ فهْم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وعقل الكلام متضمّن لفهمه.

ومِن المعلوم أنّ كلّ كلام فالمقصود منه فهْمُ معانيه دونَ مجرّد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك.

وأيضًا، فالعادةُ تمنعُ أنْ يقرأ قومٌ كتابًا في فنٍّ مِن العلم كـ: الطبّ والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتُهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم؟!

ولهذا كان النزاعُ بين الصحابة في تفسير القرآن قليلًا جدًّا، وهو وإنْ كان في التابعين أكثرَ منه في الصحابة، فهو قليلٌ بالنسبة إلى مَن بعدهم، وكلّما كان العصر أشرفَ كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر».

وقال أيضًا: «القرآن مَن تدبّره تدبرًا تامًّا تبيّن له اشتمالُه على بيان الأحكام، وأنّ فيه مِن العلم ما لا يدركه أكثرُ الناس، وأنه يبيّن المشكلات، ويفصل النزاع بكامل دلالاته وبيانه إذا أعطي حقّه ولم تحرّف كلمة عن موضعها»[2].

---

(١) انظر: تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح، ص(١٣، ١٤)، د/ رشيد كهوس، ط أولى، المنصورة، دار الكلمة، ٢٠١٥م.

(٢) مجموع الفتاوى، (٢٠/ ٨٢٥).

وما يؤكّد ذلك- أي: تدبّر السنن وأهميتها عند شيخ الإسلام- أنّ هذا الأمر ورثه تلاميذُه عنه، فتجد أنّ تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية- رحمه الله- يقول: «ليس شيء أنفعُ للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته مِن تدبّر القرآن وإطالة التأمّل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبدَ على معالم الخير والشرّ بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتضع في يدِه مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبتُ قواعد الإيمان في قلبه، وتشيّد بنيانه، وتوطّد أركانه، وتريَه صورةَ الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيامَ الله فيهم، وتبصّره مواقع العِبَر، وتشهده عدلَ الله وفضله، وتعرّفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبّه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرّفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومُصحّحاتها، وتعرّفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه، وبالجملة تعرّفه الربّ المدعوّ إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه».

وتعرّفه- في مقابل ذلك- ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصل إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه الفقرة تعبّر عن التدبّر السنني عند الإمام ابن القيم، حيث يعتبر تدبّر سنن القرآن يعودُ على العبد بالمنافع الآجلة والعاجلة، ويضمنُ له صلاح دينه ودنياه، والنجاة في آخرته.

ثمّ تحدّث عن فوائد التدبّر السّنني التي ينبني عليها مجموعةٌ من سنن الله في الخير والشرّ، والدنيا والآخرة، والسعادة والإيمان، وسنن قيام الأمم وانهيارها، وسنن النفس وما يجولُ في خلجاتها، ثمّ السّنن الموصّلة إلى الله تعالى، فالسنن التي تصدّ عن سبيله، ثمّ مقاصد أفعال الله- جلّ وعلا[1].

فهرس بأهمّ السنن الإلهية التي تناولها الشيخ تناولًا موضوعيًّا من خلال آي القرآن الكريم:

(١) راجع: تدبر السنن عند السلف، ص(٤١).

١- سنّة الله في أهل الإيمان والجهاد.

٢- سنّة الله في المتوكلين.

٣- سنّة الله في أنّ الرفعة لأهل العلم.

٤- سنّة الله في تضييق الرزق على أهل الذنوب.

٥- سنّة الله في الابتلاء بالحسنات والسيئات.

٦- سنّة الله في أهل الفواحش.

٧- سنّة الله في نصر الأمم.

٨- سنّة الله في هزيمة الأمم.

٩- سنّة الله في هلاك الأمم.

١٠- سنّة الله في التّمكين.

١١- سنّة الله في التّسخير.

١٢- سنّة الله في التّوازن.

١٣- سنّة الله في هداية الناس بعد خلقهم.

١٤ـ سنّة الله في سَلْب النّعم.

١٥ـ سنّة الله في الجمع بين المتشابهين والتفرقة بين المختلفين.

١٦ـ سنّة الله في الظالمين.

١٧ـ سنّة الله في الاختلاف.

١٨ـ سنّة الله في الخير والشّر.

١٩ـ سنّة الله في الأنفس.

٢٠- سنّة الله في فقر المخلوقات إلّا إليه.

٢١- سنّة الله في المحبة والكراهية.

٢٢- سنّة الله في الفرقان.

٢٣- سنّة الله في السعادة والشقاء.

٢٤- سنّة الله في المخلصين مِن عباده.

٢٥- سنّة الله في الثواب والعقاب.

٢٦- سنّة الله في مَن يعتقد الحقّ الثابت.

٢٧- سنّة الله في بقاء الأمم.

٢٨- سنّة الله في أهل المنكر.

٢٩- سنّة الله في الصّالحين.

٣٠- سنّة الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣١- سنّة الله في الأسباب والمسبّبات.

***

المبحثُ الثّالث

تعريفُه لعلم السنن الربانيّة ومعرفتُه بها

تظهر معرفةُ الشيخ بعلم السنن قويّة ظاهرة في معظم كتاباته، ولقد جعلها مقياسًا يقيس عليه العلماء، يقول عن بعض علماء المعتزلة: «وأبو الحسين هو إمامُ المتأخّرين من المعتزلة، وله مِن العقل والفضل ما ليس لأكثر نظائره، لكنه قليلُ المعرفة بالسنن ومعاني القرآن وطريقة السلف»[1].

وقد تأتي هذه المعرفة للسّنن بصريح الكلام مثل سنّته- سبحانه- في نصْرِ الأمم وهلاكها، وقد يأتي فهمُها ضمنيًّا من خلال كلامه وشروحه مثل سنة الله - عز وجل - في الأنفس وما جُبلت عليه.

تعريفُ السّنة لدى شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله:

يرى شيخُ الإسلام- رحمه الله- أنّ السنة: هي العادة التي تتضمّن أن يفعل في الثاني مثلَ ما فعل بالأوّل، ولهذا أمر الله- تعالى- بالاعتبار[2].

فيقول: «وهو I كما يفرق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوّي بين الأمور المتماثلة، فيحكم في الشيء خلقًا وأمرًا بحكم مثله، لا يفرق بين متماثلين ولا يسوي بين شيئين غير متماثلين، بل إنْ كانا مختلفين مُتضادين لم يسوّ بينهما»[3].

وقد ذكر شيخُ الإسلام تعريفَ المِثل: بأنه النّظير الذي يقاس عليه ويُعتبَر به، ويراد به مجموع القياس[4].

---

(١) الفتاوى، (١١/ ٢٣٦).
(٢) الفتاوى، (٣/ ٢٠).
(٣) الفتاوى، (١٣/ ١٩).
(٤) الفتاوى، (١٣/ ١٦، ١٧).

ولفظُ المِثل في القرآن الكريم وجهٌ مِن أوْجه السنّة الإلهية التي يُعرف بها.

ويتكلّم شيخُ الإسلام- رحمَه الله- في موضعٍ آخر عنْ هذا المفهوم للسنّة الإلهية، فيذكر أنّ: «طرق العلم: الحسّ، والخبر، والنظر، وكلّ إنسان يستدلّ مِن هذه الثلاثة في بعض الأمور، لكنْ يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس في الدّين وغير الدين كالطبّ؛ فإنه تجربات وقياسات، وأهلُه منهم مَن تغلبُ عليه التّجربة، ومنهم مَن يغلب عليه القياس، والقياس أصلُه التجربة، والتجربة لا بدّ فيها من قياس، لكن مثل قياس العاديات لا تعرف فيه العلّة والمناسبة، وصاحب القياس مَن يستخرج العلّة المناسبة، ويعلّق الحكم بها والعقل خاصّة القياس والاعتبار والقضايا الكلية، فلا بدّ له من الحسّيات التي هي الأصل ليعتبر بها، والحسّ إن لم يكنْ مع صاحبه عقل وإلّا فقد يغلط»[1].

لذلك يتّضح لنا أنّ للسنّة مرادفات عند ابن تيمية، وهي المثل والاعتبار والقياس، ولذلك قام بشرح ذلك؛ فقال: «والاعتبار أنْ يقرن الشيء بمثله، فيعلم أنّ حكمه مثل حكمه، كما قال ابن عباس: هلّا اعتبرتم الأصابع بالأسنان؟ فإذا قال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، وقال: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] أفاد أنّ مَن عمل مثل أعمالهم جُوزي مثلَ جزائهم؛ ليحذر أنْ يعمل مثل أعمال الكفّار، وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء، قال تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]، وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

(١) الفتاوى، (١٣/ ٧٦).

وقد تأتي السّنن الإلهية- أيضًا- عند شيخ الإسلام بمعنى: كلمات الله- تعالى- التي يأمرُ بها هذا الكون، فسبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وهي نوعان: كلمات كونيّة وكلمات دينيّة، والكون كلّه داخل هذه الكلمات[1].

وتأتي السّنن الإلهية- أيضًا- عنده بمعنى: الحقيقة الكونيّة حيث يقول: «وكثير ممّن يتكلّم في هذه الحقيقة ويشهدها يشهدُ هذه الحقيقة، وهي الحقيقة الكونية التي يشترك في شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبرّ والفاجر، وإبليس معترفٌ بهذه الحقيقة وأهل النار، قال إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦]، وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وأمثال هذا الخطاب الذي يقرّ فيه بأنّ الله ربّه وخالقه وخالقُ غيره، وكذلك أهل النار و﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠]»[2].

***

(١) انظر: الفتاوى، (١١/ ٣٢٢).
(٢) انظر: الفتاوى، (١٠/ ١٥٦، ١٥٧).

المبحثُ الرّابع

خصائصُ السّنن الإلهية عند شيخ الإسلام

للسننِ خصائصُ لا بدّ لنا من معرفتها حتى نستطيع أنْ نوظّفها، ونَفيد منها في واقعنا وحياتنا، ولقد حرص الكثيرُ من العلماء على توضيح تلك الخصائص؛ فهي حاكمةٌ على جميع الأفراد كما في السّنن الكونيّة تمامًا حيث يقول - تعالى- : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وهي منضبطة وذات نظام ثابت حيث نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

فكما أنّ السنن الكونية أو الظواهر الكونية حاكمةٌ على الجميع، فتغلي المياه عند درجة مائة، وتتجمّد عند درجة الصفر، وتعطي هذه النتيجة لكلّ مَن يتعامل معها بغضّ النظر عن دينه ومذهبه، فكذلك السّنن الإلهية في الأفراد والأمم والمجتمعات.

فإذا وقفنا عند قانونٍ من قوانين الله- تعالى- كقانون النّصر نعلم أنّ له ضوابط ومعالم تنسحب على الجميع دونَ مجاملة ولا مُحاباة، فهي لا تفرق بين مجتمع ومجتمع، ولا تفرّق بين ديانة وديانة، ولا تفرّق بين جيل وجيل؛ لذا دعا القرآن الكريم إلى التفكّر في آثار السابقين، فالذي يفهم السّنن الإلهية وعمومها يملكُ القدرة على التّعامل مع هذه السّنن، ويحسن الاستعداد لنتائجها، وقد قال قومٌ جهلوا ذلك ندمًا في الآخرة: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠].

كما أنّ هذه السنن الإلهية تتّسم بالاطّراد، فهي لا تتبدّل ولا تتخلّف.

ونستطيع أن نقول: إنّ صفات هذه السّنن هي أنها:

١- ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدل.

٢- حاكمة لا تحابي ولا تجامل.

٣- مطّردة لا تتوقّف ولا تتأجّل.

٤- عامّة لا تنتقي ولا تنتخب[١].

وبيّن شيخُ الإسلام ذلك في أثناء حديثه عن أنّ الله - تعالى - كما يفرّق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوّي بين الأمور المُتماثلة، ثمّ بعد توضيحه لذلك المعنى يعقّب على هذا الكلام بقوله: «وقد بيّن - سبحانه وتعالى - أنّ السنة لا تتبدّل ولا تتحوّل في غيْر موضع»[٢].

ثمّ يقوم بتوضيح ذلك بأنّ المقصود أنّ الله أخبر أنّ سنته لن تتبدّل ولنْ تتحوّل، وسنته عادتُه التي يسوّي فيها بين الشيء ونظيره الماضي، وهذا يقتضي أنه- سبحانه- يحكمُ في الأمور المُتماثلة بأحكام مُتماثلة، ولهذا قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، أي: أشباههم ونظائرهم، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التكوير: ٧] قرن النظيرَ بنظيره، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فجعل التابعين لهم بإحسان مُشاركين لهم فيما ذكر من الرّضوان والجنة، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ [الجمعة: ٣] فمَن اتّبع السابقين الأوّلين كان منهم وهُم خيرُ الناس بعد الأنبياء، فإنّ أمّة محمد خيرُ أمّة أخرجت للناس، وأولئك خيرُ أمّة محمد كما ثبت

(١) انظر: مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير دراسة في ضوء القرآن الكريم، د/ رمضان خميس الغريب، ص(٤٧) وما بعدها بتصرف كبير.
(٢) الفتاوى، (١٣/ ١٩، ٢٠).

في الصحاح مِن غير وجْه أنّ النبي ﷺ قال: «**خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم**»(١).

ونستنتج ممّا سبق فهمَ شيخ الإسلام لخصائص السّنن، وأنها عامّة تطبق على كلّ الأفراد، ويشملهم نفسُ حكم الأوّلين ما داموا يفعلون فعلهم، سواء كان ذلك في الخير أو في الشرّ، وأنّ هذه السنن نافذةٌ حاكمة لا يستطيع أحدٌ ردّها أو أن يتجاوزها؛ فهي لا تُحابي.

ونجدُ في كلامه- أيضًا- ما نفهمُ منه هذا المعنى حيث يقول: «كلمات الله- تعالى- نوعان: كلمات كونيّة وكلمات دينية، فكلماته الكونية هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله: «**أعوذ بكلمات الله التّامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر**»، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام: ١١٥]، والكون كلّه داخل تحت هذه الكلمات، وسائر الخوارق الكشفية التأثيرية»(٢).

أي أنّ هذه الكلمات التي هي السّنن الإلهية قوانين حاكمة على كلّ شيء حتى الخوارق والمعجزات، فهي- أيضًا- واقعةٌ تحت سيطرتها فهي عامّة شاملة، ويقول في ذلك: «إنّ الأولى قدريّة كونيّة، والثانية شرعيّة دينية، وكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية، وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية»(٣).

ويحمدُ الله- عزّ وجلّ- في مقدّمة كتاب الألوهية: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١] العالم بما كان وما هو كائن وسيكون، الذي ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧] الذي ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨]، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ

(١) الفتاوى، (١٣/ ٢٣، ٢٤)، والحديث في شرح مشكل الآثار، (٦/ ٢٦٠)، والمعجم الكبير للطبراني، (١٨/ ٢١٢).
(٢) الفتاوى، (١١/ ٣٢٢).
(٣) الفتاوى، (١١/ ٣٢٢).

﴿٧٠﴾ [القصص: ٧٠] الذي دلّ على وحدانيته في إلهيّته أجناس الآيات، وأبَان علمه لخليقته ما فيها مِن إحكام المخلوقات، وأظهر قدرته على بريّته ما أبدعه مِن أصناف المحدثات، وأرشد إلى فعله بسنته تنوّع الأحوال المختلفات...

عند تأمّل هذا الدّعاء نعلم كيف كان وعيُ الإمام- رحمه الله- بالسنّة الإلهية وخصائصها الحاكمة الشاملة لكلّ الأفراد والكائنات.

***

المبحثُ الخامس

حجيّةُ السّنن الربانيّة عند شيخ الإسلام ابن تيمية

إنّ السّنن الربانيّة قطعيّةُ الثبوت؛ لأنها جزءٌ من آيات القرآن الكريم الذي ثبت كلّه ثبوتًا قطعيًّا، وهي- أيضًا- قطعيّة الدّلالة؛ وذلك لكثرة تكرارها والتأكيد عليها وعلى مدلولاتها، والأمر في خواتيمها بالاعتبار والاتّعاظ سواء كان ذلك في الآيات التي ورد فيها لفظُ السّنة كـ: التداول الحضاري، والأجل، والتسخير، والإهلاك، وشكر النعم وكفرها، والتغيير، والترف والمترفين، إلى غير ذلك من السّنن المُثبتة في القرآن الكريم.

يقول ابن تيمية كلامًا يفهم منه حجيّة السّنن وثبوت حكمها: «وحقيقة الاستدلال بسنّته وعادته هي اعتبارُ الشيء بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، وهو الاعتبارُ المأمور به في القرآن كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢]، وإنّما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل كما قال ابن عباس في دية الأصابع: هنّ سواء، واعتبروها بديّة الأسنان.

فإذا عرفت قصص الأنبياء ومَن اتّبعهم ومَن كذّبهم، وأنّ متبعيهم كان لهم النجاة والعافية والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار؛ جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أنّ مَن صدّقهم كان سعيدًا، ومَن كذّبهم كان شقيًّا، وهذه سنة الله وعادته، ولهذا يقول- سبحانه- في تحقيق عادته وسنّته، وأنّه لا ينقضها ولا يبدّلها: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٤٣]، ففي الدليل العقلي والسّمعي يقول: فإذا لم يكونوا خيرًا منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم»[1]،[2].

---

(١) النبوات، (١/ ١٦٥)، ط١، الطبعة السلفية.

(٢) انظر: مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير، د/ رمضان خميس، ص(٥٣-٥٤) بتصرف واختصار كبيريْن.

المبحثُ السّادس

بينَ السّنن الإلهية الجارية والمعجزة لدى شيخ الإسلام ابن تيمية

للسّنن الإلهية خصائص ومميزات قد رأيناها سابقًا، فهي لا تحابي ولا تجامل ولا تستثني، حاكمةٌ على جميع الأفراد، مطّردة تشمل جميع الأجيال والأمم والأنفس، ثابتة لا تُنسخ ولا تتغيّر، وهذا ما ذكره شيخ الإسلام من خصائص السّنن الإلهية.

أمّا المعجزة عند شيخ الإسلام- رحمه الله- فهي، أيضًا، سنة مِن سنن الله - عز وجل - لا تأتي إلّا بحُكمه وإرادته وقدرته، قد اختصّ الله بها أنبياءه ورسله حتى يستطيعوا إثبات رسالتهم لمَن أرسلوا إليهم، فهي سنّة إلهية لتأييدهم، كما فُعل مع إبراهيم - عليه السلام - من أنّه جعل النار بردًا وسلامًا فلا تحرقه النار ولا يموت مِن دخانها، ويونس - عليه السلام - يعيش في بطْنِ الحوت، وغيرهما مِن الأنبياء، وهذه السنّة الخارقة- أي: المعجزة- لها قانونُها الثابت المَنوط بها[1].

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله: «وحقيقة الأمر أنّ ما يدلّ على النبوة هو آيةٌ على النبوة، وبرهانٌ عليها، فلا بدّ أن يكون مختصًّا بها، لا يكون مشتركًا بين الأنبياء وغيرهم، والربّ- تعالى- لا ينقض عادته التي هي سنّته في التسوية بين المُتماثلين والتفريق بين المختلفين، فهو- سبحانه- إذا ميّز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصّ بها؛ قرنَ بذلك مِن الأمور ما يمتاز به عنْ غيره ويختصّ به.

ولا ريب أنّ النبوّة يمتاز بها الأنبياء ويختصّون بها، والله- تعالى- يصطفي مِن الملائكة رسلًا ومِن الناس، وهو أعلمُ حيث يجعل رسالته، فمَن خصّه بذلك كان له مِن الخصائص التي لا تكون إلّا لغيره ما يناسب ذلك، فيستدلّ بتلك الخصائص على أنه مِن أهل الاختصاص

(١) السابق، ص(٥٦) بتصرف.

بالنّبوة، وتلك سنّته وعادته في أمثاله يميّزهم بخصائص يمتازون بها عن غيرهم، ويعلم أنّ أصحابها من ذلك الصّنف المخصوص الذين هُم الأنبياء مثلًا.

فلم تكنْ له- سبحانه- عادة بأنْ يجعل مثلَ آيات الأنبياء لغيرهم حتى يقال: إنّه خرقَ عادتَه ونقضَها، بل سنته وعادته المطّردة أنّ تلك الآيات لا تكون إلّا مع النبوّة والإخبار بها مع التكذيب بها أو الشكّ فيها»[1].

***

(١) النبوات، (١/ ١٦٣).

المبحثُ السّابع

العلاقةُ بين المَسْطور والمَنْظور عند شيخ الإسلام

إنّ العلاقة بين المَسْطور الذي هو كتاب الله وسنّة رسوله وكلّ ما سُطّر وكُتب من علمٍ نافع مفيد، والمَنْظور الذي هو الكون والأحياء والحياة بما فيها من سعادة وشقاء وخير وشرّ؛ علاقةٌ وثيقة غير منفصلة لا تختلف عُراها.

فهذا العلم النافع المُستمد مِن الخالق والمُنسجم مع حقائق الخلق وتكوين الإنسان الفطري والقوانين التي تنظّم الكون والحياة هو الذي تقوم عليه الحياة الراشدة الفاضلة، وهو الذي يمنحها البقاءَ والاستمرار، وبدون ذلك تضيع حياةُ الإنسان بالضلال الذي هو ضدّ العلم، والبغي الذي هو اتباع الهوى.

ومِن هنا، كان طلب العلم عبادة، ومعرفتُه خشية، والبحثُ عنه جهادًا، وتعليمه لَمَن لا يعلمه صدقة، ومذاكرتُه تسبيحًا، وبه يمجّد الله ويوحّد، وبه يرفع الله أقوامًا ويجعلهم للناس قادة وللعمران أمّة.

ولهذا ما تصدّق رجل بصدقةٍ أفضل مِن موعظة يعظُ بها جماعة فيتفرّقون وقد نفعَهم الله بها، ونعمة الهداية كلمةٌ من الخير يسمعها الرجل، ثمّ يهديها إلى أخٍ له، وهذه صدقة للأنبياء وورثتِهم، ولهذا كان الله وملائكته وحيتان البحر وطيرُ الهواء يصلّون على معلّم الناس الخير، كما أنّ كاتم العلم يلعنه الله ويلعنه اللاعنون، ولهذا مَن اشتغل بطلب العلم النافع بعدَ أداء الفرائض أو جلس مجلسًا يتفقّه فيه؛ كان هذا مِن أفضل الذكر[1].

ولقد تعدّدت كثيرٌ من المقالات التي تتحدّث عن هذه العلاقة عند شيخ الإسلام ابن تيمية، وهذا الأمر واضحٌ وجليّ في مقالاته، وهي علاقة عظيمة تدعونا ألّا ننفصل عن هذا الكون

(١) انظر: الفكر التربوي عند ابن تيمية، د. ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة دار تراث، المدينة المنورة، ص(٩١) بتصرف. وانظر: ابن تيمية كتاب الفتاوى علم السلوك، (١٠/ ٣٩، ٤٠).

الذي يحيط بنا، فسرُّ سعادتنا يكمنُ باكتشافه وتسخيره والاستفادة من بُنيانه فيما ينفع الإسلام والمسلمين، ويؤدّي إلى عمارة هذا الكون، فعمارة الكون هي الغاية التي مِن أجلها خلق اللهُ الإنسان.

وبهذا التأمّل المُتقن في الكون سنكتشف خصائصَ وصفاتٍ على الإنسان أن يتحلّى بها أثناءَ سيره لتحقيق غايته على الأرض، مثل: التوازن، والنظام، والدقة، والتحديد، والهدوء، ومراعاة المشاعر؛ لذلك كثرت اللّمحات الجميلة حول هذا الموضوع في فكر شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله، ومنها ما يقوله شيخُ الإسلام في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروحِ الرّسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأمّا الكافر فميّت القلب في الظلمات.

وسمّى الله- تعالى- رسالته روحًا، والرّوح إذا عُدمت فقد فُقدت الحياة. قال الله- تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. فذكر هنا الأصلين وهُما: الروح والنور، فالروح الحياة والنور النور.

ويعطي شيخُ الإسلام مثالًا آخر على ذلك فيقول: وكذلك يضرب اللهُ الأمثال للوحي الذي أنزله حياةً للقلوب ونورًا لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض، وبالنار التي يحصل بها النور، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧]، فشبّه العلم بالماء المنزّل من السماء؛ لأنّ به حياة القلوب، كما أنّ بالماء حياة الأبدان، وشبّه القلوب بالأودية؛ لأنّها محلّ العلم كما أنّ الأودية محلّ الماء، فقلب يسعُ علمًا كثيرًا، ووادٍ يسع ماءً كثيرًا، وقلبٌ يسع علمًا قليلًا، ووادٍ يسع ماءً قليلًا، وأخبر- تعالى- أنه يعلو على السّيل من

الزّبد بسبب مخالطة الماء، وأنه يذهب جُفاء، أي: يرمى به ويخفى، والذي ينفع الناس يمكثُ في الأرض ويستقرّ، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات فإذا ترابى فيها الحقّ ثارت فيها تلك الشهوات والشبهات ثمّ تذهب جفاء، ويستقرّ فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبَه والناس.

وقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ﴾ [الرعد: ١٧]، فهذا المثل الآخر وهو الناري فالأول للحياة والثاني للضياء.

ونظيرُ هذين المثالين: المثالان المذكوران في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ١٧-١٩].

وأمّا الكافر ففي ظلمات الكفر والشّرك غيرُ حي، وإن كانت حياته حياةً بهيميّة فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها سببُ الإيمان، وبها يحصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة[1].

فمَن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقمْ بما أمرَ به مِن الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلّقة بإلهيته وطاعة أمره وأمر رسوله؛ كان مِن جنس إبليس وأهل النار؛ وإنْ ظنّ مع ذلك أنه مِن خواصّ أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمرُ والنهي الشرعيّان؛ كان من أشرّ أهل الكفر والإلحاد[2].

وهكذا مِن خلال تناول ابن تيمية لقضية المَسْطور والمَنْظور يظهر أنّ القرآن الكريم عُني عنايةً واضحة بالاثنين على سواء، فمعظم آيات القرآن تتحدّث عن قدرة الله في الآفاق والأنفس وتدبيرِ الله لهما مقرونةً بتكاليف شرعية وواجباتٍ عملية ما هي إلّا تحقيقٌ لتلك العلاقة بين المنظور والمسطور، وبين ما هو ديني وما هو كوني. لقد جاءت الشريعة لتنظّم حياتنا البشرية وعلاقتها بهذا الكون تسخيرًا وفهمًا؛ حتى يتحقّق للبشرية مرادُها التي أوجدها الله مِن أجله.

(١) الفتاوى، (١٩/ ٩٤، ٩٥).
(٢) مجموع الفتاوى، (١٠/ ١٥٦، ١٥٧).

بينَ الأمْر التكوينيّ والأمر التشريعي:

بينَ ما هو ديني شرعي وما هو كوني في كتاب الله تدخلُ تلك العناوين، فهناك الكلمات الدينية والكلمات الكونيّة، وهناك الإرادة الدينية والإرادة الكونية، وهناك الإذن الديني والإذن الكوني، وهناك الكتاب الديني والكتاب الكوني، وهناك الحكم الديني والحكم الكوني، والقضاء الديني والقضاء الكوني، والتحريم الديني والتحريم الكوني.

وقد قام شيخُ الإسلام- رحمه الله- بشرح هذه العناوين مِن خلال استخراج الآيات الدّالة عليها مِن كتاب الله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنّ الله -تعالى - قد بيّن في كتابه كلّ واحدةٍ من: الكلمات، والأمر، والإرادة، والإذن، والكتاب، والحكم، والقضاء، والتحريم، ونحو ذلك ممّا هو ديني موافقٌ لمحبّة الله ورضاه وأمره الشرعي، وما هو كوني موافقٌ لمشيئته الكونية، مثال على ذلك أنه قال في الأمر الديني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال في الكوني: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٢]، وكذلك قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرًا ١٦﴾ [الإسراء: ١٦] على إحدى الأقوال في هذه الآية.

وقال في الإرادة الدينية: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦].

وقال في الإرادة الكونية: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال نوح - عليه السلام -: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ [هود: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٢].

وقال تعالى في الإذن الديني: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر: ٥].

وقال تعالى في الكوني: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال تعالى في القضاء الديني: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي: أمر.

وقال في الكوني: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقال تعالى في الحكم الديني: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وقال تعالى في الكوني عن ابن يعقوب: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وقال تعالى في التحريم الديني: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وقال في التحريم الكوني: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [المائدة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٩].

وقال تعالى في الدينية: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى في الكونية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ومنه قولُه ﷺ المستفيض عنه من وجوه في الصحاح والسنن والمسانيد أنه كان يقول في استعاذته: «أعوذ بكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر»[1]، ومِن المعلوم أنّ هذا

(١) سنن النسائي، باب: ذكر ما يكب العفريت ويطفئ شعلته، (٦/ ٢٣٧)، ح(١٠٧٩٢).

هو الكوني الذي لا يخرج منه شيء عن مشيئته وتكوينه، وأمّا الكلمات الدينية فقد خالفها الفجّار بمعصيته[1].

وقال- أيضًا- في موضع آخر: «إنّ كثيرًا من الناس يتكلّم بلسان (الحقيقة)، ولا يفرّق بين الحقيقة الكونية القدرية المتعلقة بخلقه ومشيئته، وبين الحقيقة الدينية المتعلقة برضاه ومحبّته»[2].

ويقول أيضًا: «الإرادة الكونية هي مشيئته لما خلقه، وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية، والإرادة الدينية هي المتضمّنة محبّته ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعًا وديناً، وهذه مختصّة بالإيمان والعمل الصالح»[3].

وأدخل- أيضًا- في مواضع أخرى مِن كلامه تحت ما هو ديني وما هو كوني لفظ: البعث والإرسال والجعل.

فجعلَ البعث الكوني في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾ [الإسراء: ٥].

وقال في البعث الديني: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وأمّا لفظ الإرسال فقال في الإرسال الكوني: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨].

وقال في الديني: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ

(١) الفتاوى، (١٠/ ٢٤-٢٦).
(٢) الفتاوى، (١١/ ٢٦٦).
(٣) الفتاوى، (١١/ ٢٦٦).

﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وأمّا لفظ الجعل فقال في الكوني: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١].

وقال في الديني: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣][1].

وهكذا نستنتج ممّا سبق تعدّدَ طريقة القرآن في عرضه لقضية السّنن من خلال فهم شيخ الإسلام للسّنن؛ حيث يتحدّث شيخ الإسلام عن قضية السنن، ووضّح أنّها ذُكرت بدلالات مُختلفة، فمرّة ذكرت بلفظ السنة، ومرّة ذكرت بلفظ الاعتبار، ومرّة بمعنى الطريقة الإلهية المعهودة في الكون، ومرّة بمعنى الحقيقة، ومرّة بمعنى مصطلح الكلمة والكلمات، ومرّة بلفظ العادة والدأب، وفي مرّات أخرى تردُ تحت الإرادة الإلهية الكونية التي تنبعُ فيها الأحكام والمقاصد التكوينيّة مثل: الأمر الكوني، والبعث الكوني، والإرسال الكوني، والحكم الكوني، والجعل الكوني، والتحريم الكوني، والقضاء الكوني، والإذن الكوني، والتحريم الكوني؛ ومرّات أخرى وردت من خلال القصص القرآني ثمّ الإشارة إلى النظر لهؤلاء السابقين والاستفادة ممّا حدث لهم، وأنه سوف يلحقنا مثل ما لحقهم.

وهكذا نجده يشيرُ في معظم أحاديثه وتفسيراته لآياتِ السنن إلى هذه الأساليب المتنوعة للقرآن الكريم لهذه السنن، ويدلّ على مدى أهمية السنن بالنسبة لحياتنا البشرية.

وكثيرًا ما يقرن اللهُ – عز وجل – السننَ الكونية بالأوامر الإلهية؛ لينبّهنا على أنّ هذا النظام الكوني يجبُ أن يقترن– أيضًا– بالأنظمة البشرية حتى يحدثَ التوازن المطلوب[2].

***

(١) الفتاوى، (١١/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) راجع: فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، عادل بن بويزيد عيساوي، ص(٢٠).

المبحثُ الثّامن

السّننُ الربّانية والإرادةُ الإلهية

فرَّق الشيخُ بيْن السنن الربّانية والإرادة الإلهية، ووضّح أنه لا تعارض بينهما؛ فإنّ طاعة الله – عز وجل – وتنفيذَ أوامره الدينية هي التي تجعل الإنسان من أهلِ طاعته – سبحانه –، ومخالفة أوامره الدينية وعصيانه لها هي التي تجعله من الفجّار والكافرين، ولا تتعارض تلك الطاعة للأوامر الدينية مع قضاء الله وقدره، فقضاؤه نافذٌ لا محالة، وكل أفعال الإنسان واقعةٌ تحت إرادته العامّة التي هي القضاء والقدر.

وقد لامَ شيخُ الإسلام– رحمه الله– مَن لا يستطيع التفريق بين الآمرِ بالمأمور النبوي الإلهي الفرقاني الشرعي الذي دلّ عليه الكتاب والسنة، وبين ما يكون في الوجود مِن الأحوال التي تجري على أيدي الكفار والفجّار، فيشهدون وجه الجمع من جهةِ كوْن الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيّته وإرادته العامة، وأنه داخل في ملكه.

يقول شيخُ الإسلام في ذلك: «هذا أصلٌ عظيم من أعظم ما يجب الاعتناءُ به على أهل طريق الله السالكين سبيلَ إرادة الدّين يريدون وجهَه؛ فإنه قد دخل بسبب إهمال ذلك على طوائف منهم مِن الكفر والفسوق والعصيان ما لا يعلمه إلّا الله، حتى يصيروا معاونين على البغي والعدوان للمُسلطين في الأرض من أهلِ الظّلم والعلوّ الذين يتوجّهون بقلوبهم في معاونة مَن يهوونه مِن أهل العلو في الأرض والفساد، ظانّين أنهم إذا كانت لهم أحوالٌ أثّروا بها في ذلك كانوا بذلك مِن أولياء الله، فإنّ القلوب لها من التأثير أعظم ممّا للأبدان، لكن إنْ كانت صالحة كان تأثيرها صالحًا، وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسدًا، فالأحوالُ يكون تأثيرها محبوبًا لله تارة، ومكروهًا لله أخرى.

وقد تكلّم الفقهاء على وجوب القود على مَن يقتل بغيره في الباطن حيث يجبُ القود في ذلك، ويستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الأمر الكوني، ويعدّون مجرّد خرق العادة لأحدهم بكشفٍ لهم أو بتأثير يوافق إرادته؛ هو كرامة من الله له، ولا يعلمون أنّه في الحقيقة إهانة، وأنّ الكرامة لزوم الاستقامة، وأنّ الله لم يكرم عبده بكرامة أعظمَ من موافقته فيما يحبّه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هُم أولياء الله»[1].

---

(١) الفتاوى، كتاب علم السلوك، (١٠/ ٢٩، ٣٠).

المبحثُ التّاسع

كيفيةُ الاستدلال على السنّة الإلهية

يعتبر الدليل النقلي من كتابٍ وسنةٍ من أعظم الأدلة على ثبوت هذه السنة وفاعليتها؛ لكونهما يمثلان المرجعية العليا للفكر والعقل الإسلامي، والدليل النقلي يعني كلّ ما أشار إليه القرآن الكريم من أدلة وبراهين وقصص وأمثال وحكم وأحكام مما يدل على معنى السنن، سواء فهم ذلك صراحة كأن يرد بألفاظ السنن المعهودة في القرآن، أو يرد بما يشير إلى سننيتها بكل أنواع الدلالة، كدلالة السياق وغيرها.

وهذه النصوص والأدلة كما أنها حاكمة على من نزلت عليهم أيام نزولها هي كذلك إلى قيام الساعة، ولذلك تبقى مصدريّتها ومرجعيّتها وقيوميّتها في عالم الدّلالة من أقوى الطّرق الدّالة على السنن ما بقيت السموات والأرض.

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله: «فإنّ نصوص الكتاب والسنة اللّذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عمومَ الخلق بالعموم اللّفظي والمعنوي، أو بالعموم المعْنوي، وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنالُ آخر هذه الأمّة كما نالت أوّلها، وإنما قصّ الله علينا قصص مَن قبلنا مِن الأمم لتكون عبرةً لنا، فنشبّه حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن مِن المتأخّرين شبهٌ بما كان للمؤمن مِن المتقدّمين، ويكون للكافر والمنافق مِن المتأخّرين شبهٌ بما كان للكافر والمنافق من المتقدّمين، كما قال- تعالى- لمّا قصّ قصة يوسف مفصّلة وأجْمَلَ قصصَ الأنبياء، ثمّ قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف: ١١١]»[1].

وهكذا نجد أنّ الدليل النّقلي من أقوى الأدلة إثباتًا لنسبة الجملة المفيدة خاصة ما يتعلّق بالسنّة الاجتماعية والنفسية والتاريخية، ولا يعني ذلك الاقتصارَ على ما أثبته القرآن فقط، بل القرآن ذاتُه يحيل إلى غيره مِن الأدلّة المعتبرة من إعمال العقل والتدبّر والسير في الأرض لاكتشافها[2].

ولقد أشار ابنُ تيمية سابقًا في منهجيّته في التعامل مع القرآن أنه يجب علينا تدبّرُ الآيات وفهمُها، وإعمال العقل في فهْم ما ورد في كتاب الله – عز وجل –.

---

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٢٥).

(٢) انظر: فقه السنن الإلهية، عادل بو يزيد العيساوي، ص(١٤٦) بتصرف كبير.

المبحثُ العاشر

أنواعُ السّنن الإلهية من خلال آثار شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله

لقد تنوّعت السّنن الإلهية التي تحكم هذا الكون بما فيه من أنفس ومجتمعات وأحداث إلى: سنن إلهية كليّة، وأخرى جزئية، ونجد وصفًا دقيقًا لهذه السّنن بكلا نوعيها في كتاب الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية للدكتور عبد الله محمد الأمين؛ حيث يقول: «إنّ حركة الوجود تخضع لسُنن ونواميس إلهيّة، ولقد طرح القرآن الكريم إشكاليّةَ السّنن التي تحكم حركةَ الوجود حفظًا له مِن الفوضى والفساد، ولما كان عمران الأرض مَقصدًا مِن مقاصد الرِّسالات السَّماوية كانت سننُ المُداولة والمدافعة والاستبدال والاستدراج وغيرها مِن السّنن الحضارية هي الحاكمةَ على الواقع، ومِن ثمّ فإنّ السَّيرورة الحضارية للأفراد والأمم محكومةٌ بهذه السنن والقوانين المضطردة، وهي سننٌ محايدة: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

وهذه السّننُ المحايدة تعتبر سننًا جزئية تعطي كلّ مَن يوظِّفها على قدر سعْيه في تسخيرها والتعامل معها.

غيْر أنّ هناك سننًا كُليَّة هي السنن التي جعلها الله مفتاحًا لقيام الحضارات بمفهومها الشامل كسُنَّة الإيمان: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وما ينبغي ملاحظته أنّه لا غنى للسنن الجزئية عن السنن الكليَّة، ولا غنى للسنن الكلية عن السنن الجزئيّة، فحضارة تؤمن بالله ولكنها لا تكتشف سنن الآفاق والأنفس- وهي سننٌ جزئية- هي حضارة عاطلة؛ وحضارة تستنطق السنن الجزئية يومًا بعد يوم- كالحضارة الغربية- دون أن تهتدي للإيمان الصحيح- وهو سنّة كليّة- هي حضارة تائهة، ضارّة لنفسها نافعة لغيرها عند اكتشافها لسنن الرّقي المادي، وهذا يعني أنّ لهذه الدنيا مقاييسها التي تجري على المؤمن والكافر»[1].

(١) الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة مقارنة، عبد الله محمد الأمين، ص(٦٦).

ونظرًا لما قدّمه الشيخ- رحمه الله- في علم السّنن نجد أنّه عُني عنايةً كبيرة بالسنن الجزئية، كما عُني بالسّنن الكلية، ومِن هذه السّنن الكلية: سنّة الإيمان والكفر، سنّة الهداية والضلال، الشّقاء والسعادة، الأسباب والمسبّبات.

وتحدّث- أيضًا- عنِ الأمر الإلهي الكوني بوصفه سنّة كليّة، وما يتفرّع عنه من سُنن وأحكام إلهيّة، مثل: الإذن الكوني، والجعل الكوني، والإرسال، والبعث، والكتابة، والقضاء والتحريم والآيات التكوينية الكونية والعهود، وهذه السنن ارتبطت بكلّ الجوانب الاجتماعية والنفسية والمادية الطبيعية.

وأمّا السّنن الجزئية فمثل: سنة النّصر والهزيمة، وسنّة التمكين، وسنّة البقاء والفناء، وسنّة الثواب والعقاب، وسنّة التوازن وتسخير الكون، وسنّة الله في الحسنات والسيئات، وغيرها.

وتعدّدت مشاركات ومعالجات وإدراكاتُ ابن تيمية للسّنن الربانية، فشملت السنن النفسية بما تحويه من مفردات، والسّنن الاجتماعية بما تحويه من مفردات، والسّنن التشريعية وما تحويه، والسّنن الطبيعية الكونية أو مظاهر السّنية في الكون، والسّنن التاريخية.

خلاصةٌ واستنتاج:

وبعدَ هذه التّطوافة يمكننا أن نقول:

تحدّثنا في هذا الفصل عن عدّة نقاط تخصّ علاقة شيخ الإسلام بالسّنن الإلهية تنظيرًا وتطبيقًا، وكانت بداياتُ هذه الدّراسة معرفتنا بالمؤهّلات التي جعلت شيخنا مؤهّلًا لمعرفة واستنباط السّنن الإلهية، وتوصّلنا في هذه الدراسة إلى أنّ أهمّ هذه المؤهّلات:

١ـ مكوّنات شخصية ابن تيمية وصفاته النفسية، ومنها:

التأمّل والعمق.

حضور البديهة.

الاستقلال الفكري.

إخلاصه في طلب الحقّ.

فراستُه.

قدرته على التقعيد.

معرفته بالقصص القرآني.

٢- تكامل العلوم العقلية والدينية.

٣- ثقافته الواسعة.

٤- التجاوب بين ابن تيمية وعصره.

وكان لنا في هذا الفصل- أيضًا- لقاءٌ مع شيخ الإسلام ابن تيمية والتدبّر السّنني عنده واستنباطها من كتاب الله.

كما عرفنا تعريفَه للسّنن وخصائصها وحجيّة السّنن الربانية عند شيخ الإسلام، وأنّها قطعيّةُ الثبوت؛ لأنها جزءٌ من القرآن الكريم.

أيضًا، كان لنا في هذا الفصل معرفةٌ للعلاقة بين السّنن الإلهية والمعجزة الإلهية، والعلاقة بين المَسطور والمنْظور، وأنّ الكون مصدرٌ من مصادر المعرفة السّنية يكون مُتكاملًا تمامًا مع الكتاب والسّنة؛ لذلك جاءت الأمثلة في القرآن مرتبطةً بما في الكون مِن مخلوقات، فمثلًا نجدُ الظلام والنور وعلاقتهم بالإيمان والكفر، ضيق الصدر للكافرين كمَن يصعّد في السماء، وشبه حياة الكافرين وأعمالهم بزبدِ البحر ليس له أهميّة كما شبه العلم بالماء.

وأيضًا وضّح وبيّن شيخُ الإسلام العلاقةَ بين المسطور والمنظور، والعلاقة بين الأمر التشريعي والأمر التكويني، وبيّن أنّ الأول يتعلّق برضاه ومحبّته، والثاني يتعلّق بخلقه وقدره ومحبّته.

وأيضًا فرّق الشيخُ بين السّنن الربانيّة والإرادة الإلهيّة، وبيّن أنه لا تعارض بينهما، وأنّه لا تعارض بيْن أن يكون الإنسانُ مِن أهل طاعة الله - عز وجل - فيكون من أهْل الإيمان، أو

يعْصيه فيكون مِن أهل الكفر، مع قضاء الله وقدره؛ فقضاؤه نافذٌ لا محالة، وكلّ أفعال الإنسان واقعةٌ تحتَ إرادته العامّة التي هي القضاء والقدر.

يعتبر الدليلُ النقلي من الكتاب والسنّة مِن أعظم الأدلّة على ثبوت السنة وفاعليّتها؛ لكوْنهما يمثّلان المرجعيّة العليا للفكر والعقل، والدليل النقلي يعني كلّ ما أشارَ إليه القرآن الكريم مِن أدلّة وبراهين وقصص وأحكامٍ وأمثال، ممّا يدلّ على معنى السّنن.

تنوّعت السّنن الإلهية عند شيخ الإسلام ابن تيمية بيْن سنن كليّة وأخرى جزئية، وأيضًا ما بيْن السّنن الاجتماعية والسّنن الكونية، والسّنن الإيمانية والسّنن النفسية.

***